القابضون على الألم

دار الجندي للنشر والتوزيع
القدس
00972542263454
info@aljundi.biz
www.aljundi.biz
*

محمد عميرة
"القابضون على الألم"
(رواية)
*
الطبعة الأولى (2013)
جميع الحقوق محفوظة
*
المونتاج والإخراج الداخلي
الريشة

الصف الضوئي: منير موسى حامد
*

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر.
All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

رواية

محمد عميرة

القابضون على الألم

دار الجندي للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين المبعوث رحمة للعالمين،

فإن هذه هي المحاولة الأولى لي للخوض في فنّ الرواية،

فإن وُفّقتُ فمن الله وفضله، وإن كان خطأً فمن نفسي،

وسبحان من لا يضل ولا ينسى.

إهداء

إلى الذين هدفهم في الحياة أسمى من تحصيل لقمة العيش،

وإلى أصحاب الأقلام النبيلة،

وإلى من يرنو للتحليق نحو الشمس؛ ولو بجناح واحد...

أهدي هذه الرواية.

توطئة

لملمت أشيائي استعداداً لإزاحة الستارة عن بعض معاناة هذا الشعب، والتي شمّ رائحتها القاصي والداني، هي رائحة توقظ الذاكرة والإرادة الضعيفة.

وقد اتحدت الأطيار اللواتي بجناح واحد، واقتربت من بعضها، وتعاطفت، وواصلت الطيران وهي تنظر تحتها للبيض الفاقس عن أطيارٍ بجناحين.

مقدمة

منذُ حوالي قرنٍ من الزمن والشعب الفلسطيني يُبتلى في كلّ شيءٍ وهو يعاني من الآلام ويقبض عليها، وازدادت آلامه بعد خذلان المتخاذلين له طوال تلك الحقب من السنين.

قليلٌ هم الذين يَرْقُبون الحدث في أرض كنعان من صَرْحٍ ذي بعدٍ مختلف، وبرؤيتهم الصائبة تلك يغبطون المتألمين على آلامهم لِما يتبع ذلك من عبورٍ للبرزخ بيُسرٍ على جناحين بلونين مؤتلفين يرفرف أحدهما بالرحمة والآخر بالعدالة.

جيلٌ يأتي وجيلٌ يرحل، وسحبٌ تأتي وسحبٌ ترحل، لكن ليست هذه السحابة فوقنا هي سحابةُ الرشيد، ولا في حكام هذا الزمن معتصمُ، وكما ليس في الجنة من فاكهة الدنيا إلا الاسم، فليس في هذا الزمان من رجال مجد الماضي إلا الاسم، والاسم عليهم كثير، ونعذر الذين يرقبون الحدث وغيرهم بسبب الأغلال التي يحاولون جاهدين تحطيمها، وعزاؤنا أنّ الخير فينا إلى يوم القيامة.

الفصل الأول

الحاج عبد اللطيف

الله أكبر.. صوت آذان الفجر في قرية صور باهر الجبلية الخضراء والمجاورة لإيلياء جنوباً يُداعبُ وقتَ السّحرِ نجومَ السّماء، ويشرحُ النفس.

وقبله صياحُ الدّيكة الذي أيقظَ الحاج عبد اللطيف، فهو ساعته المُفضّلة، أيقظ عياله للوضوء والصلاة كالمعتاد، ثمّ تناولوا طعام الإفطار من خبز الطابون وبيض الدجاج والزيت والزيتون المرافق دوماً للزّعتر.

خرج الحاج عبد اللطيف إلى العمل مودّعاً زوجته وموصيها أن تنتبهَ للعيال وهو يدعو الله: يا فتاح يا عليم يا رزّاق يا كريم، باسم الله توكلتُ على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

كان عملهُ شاقاً ويحتاج إلى قوّة جِسمانيّة، لذا كان يشربُ أحياناً زيت الزيتون كالماء، ويشرب ماء نبتة اللّفيتةِ بعد سلْقها مع البصل وأكلها، وكان عمله في قَطْعِ الحجارة من أطراف القرية ومن جبالها ومن القرى المجاورة، والحجارة تكون بحجم كبير ثم تُقطّع إلى حجارةٍ صغيرةٍ

صالحةٍ للبناءِ، وفي بعض الأحيان لا تُقطّع الحجارةُ الكبيرةُ بسبب أنّ المُتعهدَ يريد إرسالها إلى العراق.

داعب الحاجّ عبد اللطيف ابنهُ زيداً وابن أخيه وهما شابان فتيّانِ لِيَرى قوّتهما، فقال لابن أخيه لأنه كان أكبر سناً من زيد: ضع كفّ يدكِ تحت إبطي، فوضعها وشدّ الحاج عبد اللطيف عليها بقوّة وهو يقول له: اسحب يدك، فما استطاع، وقال لزيدِ: امسكني من الخلفِ ودعْهُ يسحبُ وحاول الاثنان، ولكن دون جدوى، وكأن اليد وضعت تحت دولابِ سيارة، ثم أمرهم بتقليدهِ وهو يحمل المَهدّة الحديدية الثقيلة- يستعملها لِفَلْقِ الصخر- وتزن اثنا عشر كيلو غراماً من طرف خشبتها والتي طولها متراً ويرفعها دونَ ثنْيِ يدهِ بحيث لّما ترتفع يدُهُ والمَهَدّةُ عن الأرض تكونان متوازيتان مع سطح الأرض وهو واقف، فيكون وقوفه ويده ممدودة بشكلٍ مستقيمٍ كالزاوية القائمة؛ فيحاولان جاهدانِ تقليده لكنْ بلا جدوى.

ومن الأدوات المستخدمة في قطع الحجارة (النُّخُل والبينسة- وهاتان الأداتان عبارتان عن قضيبينِ حديديّنِ طويلينِ وسميكينِ وثقيلينِ- والمهدة السابقُ ذكرُها) وهي أدوات حديدية ثقيلة، فبعد ثقبِ الصخرةِ بثقْبٍ عميق يتراوحُ عمقه بين المتر والمتر ونصف، وقُطْرُهُ خمسةُ

سنتيمترات- وهو سمك النّخل الحديدي- يوضع البارود فيه لتجير الصّخر.

بعد تحضير الصخرة وحشوِها بالبارود لتفجيرها ينتشر مساعدو الحاج عبد اللطيف لينذروا الناس صائحين: بارود.. بارود، فتُلَمْلِمُ النساءُ أولادَهُنّ- خوفاً عليهم من تراشق الحجارة المتطايرة في السماءِ كالبركان- تماماً كما تُلملمُ الفلاحة حبّات البرتقال التي تناثرت منها لإعادتها إلى سلّتها بعد أن ركلها جندي حاقدٌ ظالمٌ غاصبٌ.

غالباً ما يعود الحاج عبد اللطيف من عملهِ بعدما تلُفُّ الشمسُ شعاعها الذهبي باستحياء، وتتخدّرُ في الأفقِ الأزهرِ فيلفُّ أشياءهُ وأدواتُ طعامهِ ويضعها في سلّتهِ عائداً سعيدا إلى بيتهِ، وسرعان ما يتلاشى تعبهُ بعدما يرى أحفادهُ الذين تعوّدوا أن يُخْرِجَ لهم من جيبهِ الحلوى التي اشتراها أثناءَ عودتهِ من بقالةِ الحاجّ أبي عمر.

الدّجاجاتُ الملوّناتُ يَصُلْنَ ويَجُلْنَ في ساحة البيت ويتسابقن على التقاط حبّات القمح والكِرْسَنّةِ- وهي حبوبٌ للدواجنِ تكادُ تنقرضُ لانقراض الأراضي الزراعية هذه الأيام- وبقايا طعام أهل الدار.

فيتسابقُ ربيعٌ وإخوتهِ إلى المغارة المُلاصقة لبيتهم ليبحثوا عن البيضِ ويلتقطوه في الدّاخل تماماً كما تفعلُ الدّجاجاتُ في الخارج، فيَخرُجون منهم من يحمل بيضة، ومنهم من يحمل بيضتين، ومنهم ثلاث أو أربع

بيضات، وحَدَثَ أن فتشوا ذات مرّةً في زوايا المغارة ومَخابئها فلم يجدوا شيئاً لمدة أسبوعٍ كاملٍ، وبينما كان يبحثُ ربيعٌ في إحدى الزوايا وجَدَ دَحْواً فيه عشرينَ بيضةٍ، فصارَ يَقفزُ فَرَحَاً حتى كاد يُلامِسُ رأسَهُ سقفَ المغارة، فلملَمَ بلطفٍ البيضاتَ في حِجْرِهِ ودخلَ الغرفةَ كالمنتصرِ حتى يُريهم الغنيمةَ الكبيرةَ التي حصل عليها، وفرحتْ أمّه وأخوته بذلك، لكنّ الفرحة الأجمل كانت لمّا فقَسَ البيضُ عن خمسَة عشرَ صوصاً مُلوّناً بعد هذه الحادثة بأسابيع.

بعضُ الأطفال يطلبُ من أمّه قليَ البيض والبعضُ يطلبُ سَلقَهُ، وكلاهما لذيذ، لكنّ ربيعاً فضّلَ المسلوقَ على المقليّ.

وعندما يأتي المساء يجتمعون حول جدتهم لتحكي لهم قصة عن الغولة، وذات ليلة حدثتهم قصة جديدة عن تلك الغولة على صفير الرياح في ليلة عاصفة يصغون لها وقد برزت رؤوسهم من فراشهم...

كان يا مكان في سالف الزمان أهل قرية يعيشون في أمان، ويغرسون حقولهم بالأشجار والنباتات، وحول قريتهم قرى أخرى يعيشون مثلهم، إلا أنّ دوام الحال من المحال، فقد حدث أن هجمت غولة شريرة على قريتهم وأفسدت الحرث والنسل وقتلت من أهل القرية الكثير منها وشرّدت الكثير، وما تبقى من أهل القرية بقوا منها على خوف ووجل، على أمل أن تنجدهم إحدى القرى المجاورة، ولكن لم يفزع لهم أحد،

وظلوا يطلبون المدد طيلة مكث هذه الغولة في قريتهم، ولكن صرخاتهم كانت في وادٍ سحيق، ولم يعبأ لصراخهم أحد ؛ فكلهم يخشى هذه الغولة، وبقيت الغولة تأكل من خيرات القرية وتستولي على دورها وأراضيها حتى لم يبق لأهل القرية إلا جزءاً صغيراً من قريتهم يشبه السجن لكثرة الجُدر، وما زال أهل القرية يستصرخون ويقاومون ولكن دون جدوى.

وبسبب الظلم من القرى المجاورة التي لم تُنجد تلك القرية المبتلاة فقد ابتليت تلك القرى بفتن قتل في كل قرية منها بأكثر مما قتل في قرية الغولة.

وتنبه أهل القرى المجاورة وعلموا أن سبب فتنتهم هو عدم مساعدتهم لتلك القرية، وعقدوا العزم على نجدتها فبدؤوا بمحاسبة المتواطئين مع الغولة وإعادة تنظيم أنفسهم كي يطردوا الغولة من القرية وحتى ينجوا بأنفسهم منها.

وحين رأت الغولة قرب نهايتها وأن أهل القرى المجاورة بدؤوا بالاقتراب لمحاصرتها انتظرت حتى أتى الليل وهربت.

ولما أصبح الصباح وصحا أهل القرية لم يجدوا الغولة بل وجدوا أهل القرى المجاورة وقد أحضروا لهم الهدايا الثمينة ليباركوا لهم برحيل الغولة ويقدموا لهم اعتذارهم عن تأخرهم عن نجدتهم طيلة تلك الفترة

الطويلة والأليمة من زمن الغولة الغابر، وأصبحت تلك القرية بعد حين من الدهر من أجمل وأعزّ القرى.

أنهت الجدة القصة ورأت أحفادها قد غرقوا في سباتهم إلا ربيعاً سمعها تقول بعد أن ألقت باللحاف على نفسها: لم تسمعوا مني نهاية القصة ؛ لكن سترونها بعد يقظتكم.

يقول المثل الشعبي (الإم بِتْلِم) أيْ يَجْتمِعُ حول الأمّ في بيتها بناتُها، وأبناؤها، وأحفادها، وأزواج بناتها، وكذا مثل الأمّ: المدرسةُ، والجيشُ، وموسمُ الحجِّ، والسّجنُ، والعملُ، والطلبةُ في السّكنِ الداخليّ للمدرسة، فقد كان للحاج عبد اللطيف أصدقاء، وكان يقول: (إجعل لك في كل بلد وتد) أي: صديق، ومن أصدقائه في القرى المجاورة الذين يعملون معه من: بيت لحم، وبيت ساحور، وبيت جالا، وعندما كانوا يجتمعون حين يبيتون ليلةً أو ليلتينِ بسببِ ضغطِ العمل فإنهم يحكون الحكاياتَ والقصصَ المختلفةَ والطرائفَ.

وكما يرتاح الطائر بعد نسج عُشّهِ لأنثاهُ كيْ ما تبيض ويفقسَ البيضُ؛ فما يلبث حتى يطير لإحضار الطّعام لصغاره، فقد كانوا في موسم الحصاد يستريحون من العمل في الصّخر والحجارة ويتنافسون أيّهم يحصدُ مساحةً أوسعَ من سنابلِ القمحِ الذهبية حتى ينتهوا من حَصْدِ كلّ أراضيهم في موسم الصّيف الحارِّ.

نساءُ الحاجِّ عبد اللطيف وكنّاته ساعدْنَ في الحصاد وعمل الطّعام والشّاي في الخلاء الواسع حيث يشجّعْنَ الرّجالَ على العمل بنشاطٍ وهمةٍ أكبر، وكذلك في موسم قطف الزّيتون المبارك بالإضافة إلى جَمْعِ النساءِ الحطبَ في فصل الشّتاء ومِلءِ الجِرارِ من الآبارِ القريبةِ والبعيدة طيلة العام.

في إحدى مواسمَ الحصادِ لفتَ انتباهُ الحَصّادين صُراخُ الأولادِ، وقد أقبلوا مُسرعينَ نحو جدّهم عبد اللطيف ليبشّروهُ بولادةِ عمّتهم وهي تحصد، وقد احتفلوا بولادتها لطفلٍ جميل في الحقل.

تلك الأيام وخاصّة أيام الحصاد تبقى صورتها صافيةً في الذاكرة؛ ربّما لأنها أيام الطفولةِ والنقاء، قال ذلك الحاج عبد اللطيف لأصدقائه وهو يرى الأولاد حولَهُ يَبْذُرونَ الحقلَ مَرَحَاً، وآخرون قد عادوا بعد أن أفرغوا حمولة المحصول على البيدر عادوا متسابقين فرحين على الدّوابِّ وكأنهم يمتطون بساط الريح ليأخُذوا حُمولةً أخرى بعد أن يَجِفّ عرقهم، ويلتقطوا أنفاسهم مع رشفات الشّاي السّاخن بالميرميّة العَطِرَة.

لما تميلُ الغزالةُ برأسها قليلا نحو الغرب يكون التعبُ قد أخذ من الحصّادين كلّ مأخذ؛ فتتهادى النساءُ إلى زاوية الحقل خلف تلةٍ من المحصول لِيُحضرْنَ الطعام ولتمتلئَ البطونُ وقوداً يكفي حتى يسْكبَ الليلُ حِبْرَهُ الأسودَ على الحقل.

نظر الحاجّ عبد اللطيف وهو- جالسٌ قُرْبَ صديقهِ أبي جميل- إلى الأولاد الممتلئينَ حُبوراً وسُروراً، والذين كانوا في مقدّمة الرّكبِ أثناء العودة من يوم حصادٍ شاقّ؛ حيث كانت النساءُ في آخرِ الرّكْبِ وقال لأصدقائه بأسى: الله أعلم ما سيكون مصير أبنائنا وأحفادنا في المستقبل ويبدو أننا مُقبلون على أيّامٍ بئيسةٍ خاصّةً بعد تلاشي الدولةِ العثمانيةِ وتقسيم بلادنا كما يقسّمُ رغيفُ الخبز؛ فحالتنا كالأيتام على مائدة اللئام، فقد مزقت مُعاهدةُ سايكس بيكو اللعينةُ قلوبنا قبل أراضينا.

تنهّد الحاج أبو جميل مُجيباً: إيه يا دُنيا... الله يُفرِجْها علينا.

ردّ الحاج عبد اللطيف: اللهمّ فَرّجْها علينا جميعاً، لكنّ الذي يُحزنني مرضُ ابني، والحمد لله ربّ العالمين فقد طمأنني الطبيبُ عنه بالأمس وقال بأنه سيتعافى خلال أسابيع بإذن الله، وفعلاً شفى الله بكرمهِ وحكْمتهِ زيدٌ ابن الحاجّ عبد اللطيف، وسَدّدَ والدهُ ثمنَ علاجهِ بعد بَيعِهِ لقطعةِ أرضٍ له .

عندما كان يزور أبو جميل صديقه كان يُواسيه وهو يراه يتألّم من أجل ولده زيد ويذكّره بأن الله يبتلي عبده المؤمن وأنه لا بيتَ ولا حتى رجل يخلو من ابتلاء، فالناس خُلقوا للابتلاء، والله راحِمُنا إن شاء الله.

وبعد انقطاعه عن الحاج عبد اللطيف أكثر من شهرٍ عاد لزيارته ذات ليلةٍ ليس بعدها عمل- بعدما علم أنّ ابنه سافر- ليهنّئه بحصول ولده

زيدٍ على عمل في سوريا فقال له الحاج عبد اللطيف: ليته لم يذهب فإنّي لا أحبّ فراقه لكنّ العمل في بلادنا شحيحٌ والوضعُ صعبٌ كما ترى.

فأجابه أبو جميل: دعهُ يسافر فالسّفرُ والغُربةُ يصنعان الرّجال، فتسامروا ساعة، ولما أراد أبو جميل الانصراف ذكره الحاجّ عبد اللطيف بأن ينتظره غداً الجمعة لمصاحبته للذّهاب معه للصلاة في المسجد الأقصى المبارك.

عودة زيدٍ من الشام

الرُّؤيا

كان زيدٌ يعمل في دمشقَ في سوق الحميدية وقد أحبّهُ صاحبُ العمل لوفائه وتفانيه وإخلاصه في العمل وخاصّة بسبب حثه لثمانيةٍ من زملائهِ على الصّلاة، وقد استجابوا، وأصبحوا يصلون.

رأى زيدٌ ذات ليلةٍ في المنام أن ابنه الصّغيرَ قد توفي، فطلب من صاحب العمل أن يعود إلى فلسطين فأذن له.

اشترى بعض الهدايا لأمّه وزوجته وشقيقاته وعاد إلى بلاده، وحين وصل استوقفه ابن عمّهِ في الطريق ودعاه إلى بيته، لكن زيداً رفض وأجابه بأنه من الأفضلَ أن أذهب إلى بيتي أولا، فأصرّ عليه فرفض، فسأله بالله: أليس معك هدية لشقيتك؟- وكان ابن عمه زوجاً لشقيقته- فأجابه: بلا، فقال له: فإنا نريدها الآن.

كان سبب دعوة ابن عمّه له ليعرّجَ على بيته هو وفاة طفلِ زيدٍ ابن السّنة والنصف، ولكي يمهد له خبر الوفاة.

تجمع الناس في بيت ابن عمه كعادة أهل القُرى حين يحدث شيءٌ ما مستغربين عودة زيدٍ مبكراً من هذه السّفرة، ولم يجرؤ أحدٌ على إخباره بوفاة صغيره؛ حتى حضرت والدة زيدٍ سائلةً باكيةً: بُنيّ: هل عرفت؟ ومن سؤالها وبكائها تأكد أن الرؤيا تحققت.

بكى الحاضرون لهذا المشهد ولم يبكِ زيدٌ بل حمد الله صابراً وراجياً قصرَ الحمدِ في الآخرة وظلّ صامتاً.

وحين عاد إلى بيته استقبله ابنه الصغير ربيع ابن السّنتين ونصف قائلاً لأبيه بلهجة طفلٍ وبحروفٍ لاهثةٍ متقطعةٍ ما معناه أنّ: أخي مات، ووضعوه في الحفرة، وهذا سريره فوق الخزانة، وأشار إلى السّرير.

في هذه اللحظة فقط انهار صبْرُ زيدٍ وأجهش بالبكاء الشّديد على طفله.

وكما غابت شمسُ الجيل الذي قبل الحاجّ عبد اللطيف ورفاقه غابت شمسُهُم، وشهد زيدٌ وطفلهُ الصغير ربيعٌ وفاة الحاج عبد اللطيف وانطوت صفحته وأشرقت الشمسُ بعدهم على بلاد العرب، والتي ما زال شروقها بطعمِ الغروب، أو كَغُروبها، فماذا حدث تحت الشمس ووراءها؟

الفصل الثاني

أبو ربيع

تَرَعْرَعَ على تِلالِ قريةِ صور باهر أبناؤها وأبناءُ الحاج عبد اللطيف وأصدقاؤه رحمهم الله، وكان ترعْرُعُهم متوازياً ومُتزامناً مع ترعرعِ تلالٍ من المؤامرات والخيانات والوعود الكاذبة التي ملها الأبناءُ والأحفاد على مدى سنينَ خلتْ.

وكم أشرقت الشمسُ وكم غربت، لكن ذات مرّة في منتصف آذار كان شروقُها غروباً على دار زيد ابن الحاج عبد اللطيف حين استيقظ أحفاد الحاجّ عبد اللطيف على بكاء جدّتهم وأمّهم وزوجة أبيهم، وكان ربيعٌ بن زيدٍ أكبر إخوته في الثامنة من عمره سأل والدته بدهشةِ الطفولة البريئة والمُكللةِ بالخوف من مجهولٍ مشؤومٍ: لماذا تبكون؟ وما هذه الفوضى في البيت، ولِمَ الفراشُ مبَعثرٌ؟ أجابت أمّه وقد ازداد نحيبها: لقد حضر اليهود ليلاً وأنتم نائمون فأخذوا أباك، وبعد حين من الدهر علم أن اليهود وجدوا سلاحاً في المغارة الملاصقة للبيت.

تجمّدَ الحزْنُ عند هذا الحَدَثِ في قلبِ هذا الحَدَثِ.

ودونما معرفة بما جرى ومن هم اليهود وما هي أسبابُ سَجْنِهم لأبي ربيع فقد اختفى من البيت رُكنٌ كاد يميلُ بالبيت نحو التّهادي لولا تدارُك العنايةِ الإلهيّة ولُطْفِها.

ثمّ عَلِمَ ربيعٌ أنّ اليهود كانوا سيهدِمون البيتَ إلا أن جدّته فاطمة قالت لهم إنّ البيت ليس لربيعٍ وهو مسجّلٌ باسمي وأحضرت لهم الأوراق الثبوتيّة بهذا الخصوص حتى عدلوا عن هدمه.

أضحت الزّياراتُ النّصفِ شهريّة عادةً روتينيّة طوالَ فترة الأسْر، وكانت تُوزّع بين أهل أبي ربيع وأقرباءه، والكلّ ينتظر دوره للزيارة بفارغ الصّبر، وكأن لسانَ حال أهل أبي ربيع يقول:

(أعِدّ الليالي ليلةً بعد ليلةٍ وقد عِشتُ دهراً لا أعدُّ الليالیا)

بل هذه حال غالبيّة الشّعب الفلسطينيّ المُرابط؛ كالأطيار بجناح واحد ويجب عليهم التّحليق والاستمرار في الصبر والصمود.

لم تجد أمّ ربيعٍ بدّاً من أن تبحث عن عمل لإعالة صغارها والّذين سيزداد عددهم بعد ولادتها، وقد يسّرَ الله لها بلطفه العمل في مدرسة قريبة من بيتها، فبقيت في العمل طيلة فترة أسر زوجها وحتى بعدها بقليل.

ولمّا شبَّ ربيعٌ وكبر صارت الذكرياتُ القليلة له مع أبيه تراوده بين حين وحين في لحظات الصّفاء والتأمّل والحنين والظمأ والشوق للدفء

الأبويّ حيث كان أبوهُ يوصِلُهُ إلى المدرسة صباحاً ويُسلّمَ على المعلمين المناوبين الواقفين أمام البوّابة الرئيسية للمدرسة مقابل الطريق العام فيدخل ربيع إلى باحة المدرسة ويتابعُ أباه طريقهُ إلى عمله.

وحين يلتقي ربيعٌ مع إخوته يتذكرون كيف كان يجمعهم أبوهم لينشدوا معاً أمام أقربائه أنشودة:

يا معهداً علمني/ وبالهدى جمّلني

حليتني من صغري/ بكل خلقٍ حسنِ

كم فيك من معلمٍ/ برٍّ كثير المننِ

بعلمه زودني/ بنصحه أرشدني

تحيةً يا معهدي/ يا أصل عيشي الهني

أنشأتني مباركاً/ لأمتي ووطني

فقد كان أبو ربيع محباً للعلمِ ومحثاً عليه.

لكن من الذّكريات التي كانت تحْزن ربيعاً بكاءُ جدّته كلّ عيدٍ حين يَصْطَفُّ وإخوتهُ حولها وهي جالسةً أمام صندوقها الخشبيّ الأثريّ لِتخْرِجَ من صدرها مفتاحاً مربوطاً بِخيْطٍ قويٍّ لتفتحَ بتؤدةٍ الصندوقَ وتعطيهمُ بضعةَ قروشٍ وهي تبكي عليهم وعلى أبيهم، ومحزونة النفس، وكم تمنّت أن يخرج ابنها من السّجن قبل وفاتها، ولكن الله لم يشأ أن ترى ابنها؛ فقد توفيت وتوفى معها الأملُ والشّوقُ اللذانِ كانا يُداعِبانِ قلبها،

وقد عزّى المساجينُ أبا ربيع وبكى عليها في السجن بكاءً كثيراً فقد كان يحبّها وكانت تحبّه حبّاً شديداً.

كما وتعود الذكريات بربيعٍ إلى حرب عام 1967 وهو ابن ستّ سنوات حين تركوا النوم في البيت وصاروا ينامون في المغارة المُلاصقةِ لبيتهم لأنها أكثر أمناً، وجاء للاختباء في هذه المغارة الكبيرة عمّاتُ ربيعٍ وأزواجهن وأبناؤهنّ مع زوجات وأبناء أبي ربيع وجدّتهم الحاجّة فاطمة قبل وفاتها.

تلك من الذّكريات التي ما زالت تطفو على سطح الذّاكرة، وكيف تُنسى، ويقال إن الأسى لا يُنسى فقد كانوا ينامونَ على أزيز الرصاص الذي ينقُرُ على الأبواب كزخّات المطر، ولمّا هدأ النقر خاف الناسُ العُزّلُ من ازدياد الأمر فقرّروا الهروبَ إلى منطقة أكثر أمنا عند أنسباءٍ للحاجّ عبد اللطيف في منطقة العبيديّة الشرقيّة قرب دير ابن عبيد، والذي يرى من قرية صور باهر مع أفقِ الشّرق، وكان الملجأ مغارة كمغارة الحاج عبد اللطيف، ثم ما لبثوا بعد أن هدأت الأمور أن عادوا إلى بيوتهم في القرية، وحمدوا الله أن بقوا في قريتهم ولم يحدث لهم ما حدث العام 1948 في قرية دير ياسين وغيرها من القرى المهجرة، خاصةً وأنّه لا صريخَ لهم.

هذه بعضُ ذكريات ربيع التي كانت تراوده بين حينٍ وآخر وخاصة بعد عودته من زيارة أبيه الطويلة السفر والقصيرة المُحادثة.

الفصل الثالث

الزيارات

بالرغم من مرارة المعاناة أثناء الزيارات للأسرى والتي كانت تبدأ بعد الفجر وتنتهي قبل مغيب الشمس إلا أن فيها بعض العزاء من إطفاء شوق بلقاء الأسير أو التعرفِ إلى أشخاصٍ من مناطق مختلفة من فلسطيننا المباركة، والتحدث في الحافلة أثناء السّفر الطويل انطلاقاً من القدس من أمام الصليب الأحمر وحتى الوصول إلى سجن الرّملة أو سجن عسقلان، وتناول طعام الإفطار في الحافلة وخاصة الكعك المقدسي المرافق دوماً للفلافل، وخاصة لمّا يجلسُ ربيعٌ جانب صديقه سميرٌ الذي يزور أخاهُ برفقةِ أمّه.

في إحدى الزّيارات كان ربيع يجلس قرب الحاجّ جُمْعة، وكان الأكثر زيارة للأسير زيد أبي ربيع وكان الحاجّ جمعة متزوجٌ من أخت زيد، ولم يُرزق حتى مماته بالذّرّية لا من أختِ زيد ولا من اللواتي كنّ قبلها.

اشتهر الحاج جمعة بمداواة الناس بالأعشاب، وخاصّة داء الحصْوَة، فعند توقفِ الحافلة في منطقة قريبة من الأحراش ليقضي بعض الركاب

حاجتهم، أو للاستراحة وشرب الشّاي كان الحاج جمعة يخبئ فأساً صغيرة تحت إبطه ويذهب باحثاً في الجبل عن عشبةٍ معيّنة فينْبِشُ على جذورها ويقطعها ويخبؤها في كيسٍ معه، وكثيراً ما كان يفعل ذلك دون اكتراثٍ من أحدٍ بما يفعل أو ماذا يفعل.

وكثيراً ما كان يتردّد ربيعٌ وصديقهُ إلى بيت عمّتهم زوجة الحاجّ جمعة فتحتفي بهم أيّما احتفاءٍ، وتعمل لهما كأسين من الشّاي بعناية فائقة ومحبّة خالصة، فيشاهدان جذوراً مُعَرّضَةً للشمس في باحة البيت ويسألان عمّتهم فتقول لهما إن زوجي يعمل من هذه الجذور دواءً للحصوة، فيُتابع الحاجّ جمعة كلامها ويقول مفتخراً بأن الكثيرين يأتون ويشترون الزّجاجة منّي بخمسة دنانير حتى أتاني أحدُ الأطّباء واشترى منّي زجاجة، وكل من اشترى منّي زجاجة واستعملها شوفيَ بإذن الله، وقد حكى لنا مرّة حين زرناه أنّ اسم هذه الشجرة (العاقول) وقال: إنّ لهذه الشجرة قصّة؛ فقد كنت أعمل في الأردن في أحد الأديرة وقلت للرّاهبة: هل أجدُ عندك دواء للحصوة؟ فقالت: سأنظر في الكتب التي عند الرّاهب، فلما وجدت الدواء أخبرتني عنهُ وهو جذور نبتة العاقول ورأيت شكلها وحفظت اسمها وطريقة استعمالها وهي بأن تغلى جذورها في الماء ثلاث أو أربع ساعات حتى يصبح لون الماء كلون الشّاي، ثم تنتظر حتى يبرد محلول الجذور وتصفيه وتضعه في زجاجة، ويشرب المريض كأساً من زيت

الزيتون وكأساً من جذور هذه النبتة فتتفتّتُ الحصاة وتخرج بلا ألمٍ مع البول.

ثم تابع الحاجّ جمعة: ولما علم الرّاهب أنّ الراهبة قد أعطتني هذه الوصفة اغتاظ غيظاً شديداً، وعَلِمْتُ أنه كان يبحث عني، ومرّت الأيام ونُسيَ الأمر.

وتستمر الزيارات وتمرّ السّنين والأحداث مرّ السّحابِ، وكلّما زار ربيعٌ والده زيداً نما وكبر شيئاً فشيئاً دون أن يحسّ بالزّمن تماماً كما يغرس الفلاح غرسته وينظر إليها كل يوم فلا يراها تكبر لكن النّاظر الآخر والأبعد عن متابعة الحدث يرى الفرق ويراها تكبر بوضوحٍ لتباعد زمن الرؤية، ويرى زيدٌ أبناءه يكبرون فيسعد بهم ويدعو لهم ويظلّ يوصي زوجته بالحرص على تعليمهم قائلاً: حتى لو بعتِ البيت الذي تسكنين فيه لا تخرجيهم من المدارس، وكثيراً ما يردد لهم أبوهم قول الشّاعر:

(العلم يبني بيوتا لا عِماد لها - والجهل يهدم بيوت العزّ والكرمِ)

فَتوافقه الرأيَ وتطمْئنهُ.

تتوالى الزّيارات فمرّةً تبَشّرُ أمّ ربيعٍ زوجها بفرحٍ حدث، ومرةً بترحٍ حدث؛ فالأخبار التي كانت تتوالى على المساجين ذاتَ أهميّة كبيرةٍ لهم، وكأنهم يقتاتون عليها كالطّعام؛ بل ويتسابقون في الحصول على خبرٍ جديدٍ، وذلك لِشوقِهِمْ لمعرفة ما يجري خارجَ قبرِ الأحياء.

لقد ملّ ربيعٌ الأحزان منذ صغره وكم ارتوت مخدّته ليلاً بدموع الشّوقِ لأبيه وهو يرتقي من صفٍّ إلى صفٍّ حتى أصبح في المرحلة الثانوية وكان متلهّفاً لهذه المرحلة حيث سيتركُ مدرسة القريةِ التي قضى فيها المرحلة الأساسية والإعدادية ليذهب للدراسة في قرية أبو ديس ويصبح رجلاً.

أصبحت الأيام الصعبة الطّويلة التي ما قبل الثانوية- أيام الصّبر والألم- خلف ظهورنا ومجرّد ذكرى؛ لكنها مُلاصقةٌ لقلوبنا بالرّغم من اجتيازها وتشبهُ الذي اجتاز امتحاناً ما ونجح.

وقف ربيع ينتظر قدوم الحافلة مُتمنِياً وصول صديقه سمير قبلها فينظر إلى ساعته تارةً وإلى ملابسه للتأكد من أناقته تارةً أخرى، وإلى الطريق الفرعية لعلّهُ يرى صديقه تارة ثالثة، وبينما هو كذلك إذ بصديقه يُباغِتهُ من خلفه مداعباً ومُسّلِماً عليه، فابتهج ربيعٌ به خاصّة مع وصول الحافلة فصعدا وجلسا كالعادة في الكرسيّ الخلفيّ ليتحَدّثا بحريّة.

فتحَ ربيعٌ نافذة الحافلة قائلاً: كم أكره مادة الرياضيّاتِ ومُعلِّمِها وأخاف أن أرسبَ فيها.

قال صديقه: توكل على الله وعلى كل حال تدّرب على بعض التمارين والأمثلة وليس بالضرورة أن تحصل في مادة الرياضيّات على علامة ثمانين فعلامةُ ستين تفي بالغرض على أسوأ الاحتمالات.

قال ربيع: مع قناعتي بالدّراسة إلا أنّني أعلم أن معاش الموظّفين لا يكفي لتسديد فواتير المياه والإنارة ومصروف الطلاب اليومي والأشياء الكثيرة الضرورية للمعيشة البسيطة.

قال سمير: هل تعلم أن أحد أقربائي قال لي إنه عمل في ورشة للبناء وأن كلّ الذين يعملون فيها حاصلون على شهادات عليا أدناها الثانويّة العامّة، وقد سماها ورشة المثقفين.

قال ربيع: هذا شيءٌ جميلٌ أن يعملَ الإنسانُ أيّ عملٍ شريفٍ لكن بعدما يتعلّم ويتخرّج، وللأسف فَوَضْعُنا في هذا الاستعمار يجعل الحصول على وظيفة أمراً صعباً، فالحمد لله على كل حال، ولن يخسر الإنسان إذا تعلّم بل يكسب العلمِ ويتسلّح به.

قال سمير: صدقت، فالعلم نورٌ ونجاحٌ وفلاحٌ، وإن شاء الله يوفقك الله اليوم يا ربيع في امتحان الرياضيّات.

قال ربيع: آمين وقد أنسيتني السؤال عن أخيك هل زرته في الأردن وهل من أملٍ بعودته للضّفّة؟

قال سمير: ليت هذا يكون يبدو أن الأمر محال ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أنهى ربيعٌ وسميرٌ المرحلة الثانوية بنجاحٍ رغم أنّهما كانا يعملان في الوُرشِ والمطاعمِ والفنادقِ أثناءَ العُطَلِ المدرسيّة لمساعدة أهليهم، وكذا

حال إخوتهم وأقربائِهم فكأنّهما يشقّان الطريق لأخوتهم الأصغر سِناً لِيَسيروا على خُطاهم، لكن وإن سرنا على نفس الطريق فكلّ منّا يرى صوراً تختلفُ، وفي مخزونِ ذاكرته أحداثٌ تختلفُ، وكثيراً ما تأتلف بالمعاناة.

افترق صديقا الطّفولة والشّباب جسديّاً فترة من الزّمن بعدما تجاوزا السّبعة عشرَ عاماً بسبب سفر ربيع إلى الأردنِّ لإكمال دراسته واختيار صديقه سميرٌ للعمل.

حين أصبح ربيعٌ في عمّان أخذ بيده جدّهُ لأمّهِ وصال بِهِ وجالَ بين الجامعات، لكنّ الجامعات لم تقبلهُ بسبب حصوله في شهادة الدّراسة الثانويّة على علامةٍ هي أقلّ من السّبعين بقليل، والجامعة الأردنيّة لا تقبل وقتذاك إلا من حصل على معدّل تسعينَ فما فوق، فلم يكن أمامه سوى القبول في إحدى الكليّات هناك، واختار المُحاسبة التي يكرهها، لكنّه أصبح تحت أمرٍ واقع، فاضّطر إلى المثابرة وإكمال دراسته والعودة بشهادة الدّبلوم إلى بلاده، وقد تبدّد حلمه بدخول الجامعة والتي تمنى دخولها لدراسة اللغة العربيّة التي يعشقها عسى أن يكون شاعراً أو كاتباً أو مدرّساً لها.

فقد كان منذ صغره ذكيّاً وحصل على الدرجة الثّانية حين كان في الصّفّ الثاني الأساسي، لكن لما ترفعَ للصّفّ الثّالث وهو ابن ثماني

سنوات اعْتِقَلَ أباهُ، فتراجعت علاماته كلّ سنة حتّى توقفت العلامة عند (68٪) عند تقديمه لامتحان الثانوية.

نصف الشعب الفلسطينيّ في الأردن وكل عائلة تقريباً في الضّفة يوجد مثلها في الأردن؛ لذا لم يشعر ربيع بالغربة هناك خاصّة وأنّ جدّهُ لأمّه يعيش هناك وأخواله وكثيراً من أقربائه، فلم يشعر بالغربة طيلة السّنتين التي حصل فيهما على شهادة دبلوم في المحاسبة إلا في أواخر السّنة الأخيرة لاقتراب موعدِ العودة إلى بلده أرّقهُ الحنين والشّوق، فهو لم يزُرْ أهله أثناء الدراسة؛ بل كانت أمّه بين الفينة والأخرى تزوره في بيت خاله وجدّه، لذا لمّا عاد إلى فلسطين ووصلت به الحافلة إلى منطقة الخان الأحمر فالعيزريّة كاد أن يطلب من السّائق الوقوف لينزل ويسجدَ شكراً لله على إطفاء نار شوقه للأرضِ المقدّسة.

وكعادة الخرّيجين يملّون من البحث عن وظيفة فلا يجدونها، وما لبث أن عاد إلى صديقه سمير وعملا معاً في الورش والفنادق كما الحال قبل افتراقهما واستمرّا سنين.

سأل سميرٌ صديقه مرة: كيف تتركني يا رجل كلّ هذه الفترة وأنت في عمّان؟ ألم تشتقْ إليّ؟

أجاب ربيع: والله إنّني كنتُ أتضوّرُ شوقاً إليكم ولقريتنا الحبيبة لكن ما بيدي حيلة، أريد أن أنْجِزَ شيئاً بعد شهادة الدّراسة الثانويّة العامّة

فاكتفيتُ بالدّبلوم، ثمّ كنتُ أعمل نهاراً في مكتب مهندس مُراسلاً وأصوّرُ خرائط البناء الشفافة على الماكينة منزعجاً من رائحة المادة التي تخرج من تلك الآلة وربّما كان اسمها مادة الأمونيا تُزكم الأنف والحلق، كانت أيّام الدّراسة في عمّان صعبة وجميلة، وكنتُ أنام أسبوعاً في بيت جدي مع خالي وصديقي الذي في مثل سنّي، وأسبوعاً آخرَ أنام في بيت خالي وكلّهم لي مُحبٌّ ومرحّبٌ، ومن الأشياء الجميلة خروجي صباحاً من دار خالي فأمرُّ على ياسمينة مقابل مطعم (أبو تيسير) الشعبي، وكانت على مفترق الطريق قبل الشارع الرئيسي بأمتار حيث كانت رائحتها تعبق فتبعثُ في نفسي انشراحاً وتفاؤلاً.

بدت هذه الأعوام لربيعٍ وكأنها سباحةً عكسَ التيار؛ إذ ما زال أبوه والكثير من المناضلين خلال كل تلك السنوات في سجون الاحتلال حتى تزوج سمير وبعده بأشهر تزوج ربيع أثناء عمله في مصنع للقماش قرب بلدة بيت صفافا، وكانت زوجته حاملاً منتصف العام 1985، وكان حَمْلاً يحملُ شفاءً من شقاء الماضي.

الفصل الرابع

المذياع

حديث الناس عن صفقة تبادل للأسرى تردد كثيراً، لكن الناس من كثرة تردّد هذا الحديث لم يعيروه انتباهاً لأنهم لا يصدقون مثل هذه الأخبار في هذه الفترة من الزمن، وبالرغم من هذا فقد حمل ربيع وسمير المذياع بلهفة وشوق؛ فلربما يصدقُ الخبر هذه المرة، وكم كانت المفاجأة عظيمة عندما سمعوا عن صفقة تبادل للأسرى يشرف عليها الأمين العام للجبهة الشعبية المناضل أحمد جبريل، وهي صفقة كبيرة يُطلق فيها سراح أكثر من ألف أسير ومنهم أسرى محكومين مدةً طويلة،فقد رقصت قلوبهم فرحاً هذه المرة وأحسّا أن أبا ربيع وأخا سمير سيكونان من ضمن الصفقة، وقد كان ذلك، ولا رادّ لقضاء الله.

تلك الفرحة التي أتت من المذياع ذكرتهما بمقتل السادات في (6/ 10/ 1981)، أي قبل حوالي أربع سنوات من هذا التبادل.

بعد منتصف أيار عام ألف وتسعمائة وخمس وثمانين والذي يودعُ الربيعَ، ولا تزال عباءةُ الربيعِ الخضراءَ تتحرشُ به استيقظت زوجة ربيعٍ

بعد ساعة الصفر على نقرات لطيفاتٍ على باب بيته الذي في فناء ساحة البيت القديم لجده، فنبّهت ربيعاً قائلة: ربيع.. ربيع.. استيقظ وانظر من يطرق الباب في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

صحا ربيعٌ وشعر بشيءٍ من الوجلِ متسائلاً: تُرى من يكون الطارق في مثل هذه الساعة؟

اقترب بحذر من الباب وسأل: من الطارق؟

فأجاب الطارق: أنا أبوك يا ربيع.

فازداد ربيعٌ ريبة وفضولاً، وكان يخشى أن يكون الطارق من المخابرات لأنهم كانوا يعتقلون أحياناً لأسباب بسيطة، فسأل مرة أخرى: من؟ فرد الطارق: أنا أبوك زيد افتح الباب لقد أطلقوا سراحنا.

فتح ربيعٌ الباب وخرج ونظر؛ فإذا الطارق قد ابتعد عن الباب عشرة أمتار تقريباً وقد وقف قرب البئر القديمة التي على المدخل الرئيسي للبيت والمحاذية للطريق وقد ارتدى لباساً أبيضَ وحذاءً رياضيّاً أبيضَ.

اقترب ربيعٌ منه ليحدّق فيه فقال له أبوه: اقترب أنا أبوك.

فظل ربيعٌ مبهوراً ثم قال: أبي.. أبي، وسلمّ عليه وتعانقا وقبّلا بعضهما وما زال ربيع في شبه صدمة لا يستطيع تفسيرها إلا بالصبر وسأل أباه: أين الجيش؟ هل أنت وحدك؟ فقال أبوه: أطلقوا سراحنا في صفقة تبادل للأسرى بوساطة أحمد جبريل.

فقال ربيع: كنا قبل أيام قد سمعنا في المذياع عن هذا الأمر وفرحنا وقد تمّم الله فرحتنا الآن.

قال أبو ربيع: اهدأ الآن وادخل بهدوء ولا توقظ إخوتك. وكانت الساعة تقترب من الواحدة ليلاً.

دخل ربيعٌ ومشاعرٌ مختلفةٌ مضطربةٌ ممزوجةٍ بفرح وعجبٍ وفخرٍ فطرق غرفة باب جده القديمة المُقببة والتي تأوي داخلها الأم والأولاد والبنات والتي تربّوا فيها جميعاً وطالما استمعوا فيها لحكايات جدتهم فاطمة رحمها الله، فتذكّرَ ربيعٌ جدته وقال في نفسه: ليتها كانت هذه اللحظة بيننا لتزغرد زغرودةً تُخرجُ بها إلى السماء كلّ سنين الهمّ والقهر التي عانتها وانتظار معانقتها لولدها.

دخل ربيعٌ بعدما فتحت أمه الباب وكأنّ أباه قال له: أدخل وأيقظ إخوتك، فبعد أن وطأ للخبر بلطف مع والدته حتى يخفّف صدمة الحدث البهيج استقبلت الأمّ زوجها مندهِشةً فرِحَةً، وأعلمها بصفقة التبادل، وشكرا الله وحمداه وبكيا.

لم يتمالك نفسه ربيعٌ وبدأ بإيقاظ إخوته الأكبر فالأصغر والكل يقوم من النوم مصدوماً ومتعجباً، ولما أيقظوا الابن الأصغر والذي وُلِدَ بعد دخول أبيه السّجن؛ صحا من النوم ورأى أباه فصار يصرخ: أبي.. أبي..

ويبكي بشدّة وهو يعانقُ والده، وشرع كل مَن بالغرفة بالبكاء لهذا المشهد المؤثر.

وكعادة ربيعٍ الذي لا يصبر؛ فحين توفيت جدته ليلا قبل خروج أبيه من السجن ذهب ليلاً وطرقَ أبواب أهل حارته وأقربائه، فحضروا مسرعين وظلّوا سهارى حتى الصباح وهي مُسجّاةً وهم حولها محزونون يتأملون فيها سرّ الموت .

أما هذه المرّة، فقد طرق أبواب أهل حارته ليلاً وأخبرهم بالخبر السعيد وحضروا وظلوا سهارى حتى الصباح حول أبي ربيع يحدثهم عن السجن والمساجين، وهم يتأملون فيه سرّ الحياة.

أكثر من شهر والناس يتعاقبون على بيت أبي ربيع للمباركة والتهنئة بخروجه من مقبرة الأحياء والذي مكث فيها أكثر من ستة عشرة عاماً، وأكواب الشاي والعصير والقهوة تأتي بطاناً وترجع خماصاً بلا توقفٍ، وقد حصر أناسٌ يعرفهم ربيعٌ خلال زيارته لوالده وأناسٌ آخرون من غالب مدن وقرى فلسطين المباركة؛ إذ لم تسلم قريةٌ أو مدينةٌ أو حارةٌ من شهيدٍ أو جريحٍ أو معتقلٍ أو منفيٍّ أو بيتٍ مهدومٍ أو أرضٍ مصادرةٍ أو قلع أشجار زيتونٍ.

في إحدى زيارات التهنئة بخروج أبي ربيع من معتقله،وكان ربيعٌ يعمل في المُصلى المروانيّ في المسجد الأقصى المبارك مع الأوقاف نظراً

لصعوبة الحصول على وظيفة في تخصّصهِ، وقد كان المُصلى المرواني مهجوراً، فكانوا يعملون على إخراج الأتربة منه لتهيئته للترميم من أجل التوسعة والصلاة فيه، وقد كان الحمام البري يُعشّشُ فيه ويُفرّخ، وكانت الأعشاش جاهزة ومنتظمة، ولم يكن على الحمام من عبءٍ إلا إحضار القش والبيض والتفقيس، وقد فرح ربيع وزملاؤه الستة الذين يعملون في المصلى المرواني باصطياد سبعين حمامة وزغلول، فحصل كل واحد منهم على عشرة طيور، كان هذا في اليوم الرابع أو الخامس من خروج والده من السجن وقد عملت أم ربيع من الطيور طبخة وحساءً لذيذين، فسأل أبو ربيع أصدقاءه الزائرين إن كان هذا الطعام حلالاً أم حراماً؟

وقد كانوا من الصّوفية وأنشدوا أنشودة جماعيةً دينية مدويةً احتفاءً بفرحة الخروج وسألوا ربيعاً: هل الأطيار طليقة أم أن موظفي الأوقاف حبسوها وهم يطعمونها؟ فأجابهم: إنها طليقة وتدخل من النوافذ القديمة للمصلى وتخرجُ منه وكان يطلق اسم (الإسطبل) على هذا المصلى، وقد كانت الأعمدة الحجرية الضخمة محفورة حفرة بقطر إنشين تقريباً وعلى ارتفاع مترٍ حيث كان الصليبيون المحتلون وقتذاك يربطون خيولهم فيه. وفي سقف المصلى نوافذ مربعة ربطت فيهن البكرات بالحبال لسحب الطمم وإخراجه، ويبلغ ارتفاع السقف حوالي عشرة أمتار، ثم

يأخذ هذه الأتربة العمال الذين على سطح أرض المسجد الأقصى ويفرغونها على أشجار الزيتون المغروسة هناك.

فلما سمعوا إجابة ربيع بأنّ الطيور طليقةً أحلّوا الطعام وأكلوا منه.

الفصل الخامس

بين حياتين

انتهت مرحلة عُرسِ الاستقبال وجاءت مرحلةُ مقارنةِ حياةٍ نموذجيةٍ صغيرة محدودةٍ داخل جدران سجنٍ بحياةٍ داخل سجن كبيرٍ وأوسع وأعقد؛ فنتج عن مقارنة زيدٍ بين هاتين الحياتين مواجهة فكرية واجتماعية ونفسية بينهُ وأبنائهِ الذين كبروا واستقلوا وصاروا رجالاً تجاوزوا مرحلة الطفولة، وكانوا بلا قائد وقد تعودوا على الطيران بجناحٍ واحد كما حال أغلب شعبنا.

حضر أخو زيد الوحيد والأكبر منه سناً وطلب يد ابنة أخيه لابنه، لكن ابنة زيد لا تريد ابن عمها لشعورها بأنه كأخيها، ونظراً لمحبة أبيها لعمّها فقد قبلت على مضضٍ، ولكن بعد فترة من الزمن قررت بعدما شجعت نفسها إعلان رفضها، ولأن الشّرْعَ معها حيث الأمرُ بيدها ولا يجوز الإكراه في الزواج، فحدث الخلعُ وفي رأس أبي ربيع منه صدعٌ بسبب غضب أخيه، ثم أصبحتْ زوجةً لابن خالها في الأردن. بعد انتهاء هذه المشكلة واجهت أبو ربيع مشكلةٌ أصعب، حيث كانت زوجته تعمل

في مدرسة قريبة ومجاورة لبيتها، وأراد زوجها أن تتوقف عن العمل فأبت وبدأت المشاكل بالتصاعد تدريجياً وصار الناس يتابعون الحدثَ وخاصة الأقارب حتى حدث الانفصال بين أم ربيعٍ وزوجها فأيد بعض الناس أمّ ربيع وأيد آخرون أبا ربيع.

لكن ما فائدة رأيهم بعدما خرج السهم من القوس وانطلق السهم وقد تشعّبَ إلى عدّة أسهم أصابت عدّة أفئدة بجراحٍ متفاوتة العمق والزمن؟!

أحدثت هذه الحادثة شرخاً بقي فترة من الزمن بين أبي ربيع وبنيه، لكنّ الزمن يخففُ المصائب حتى مصيبة الموت.

ثم ما لبث أبا ربيع حتى قسّم الأرض بينه من جهة وبين بنيه وأمهم من جهة أخرى، ولحسن الحظ فقد كانت أمّ ربيع قد حصلت على قرضٍ من الكويت عن طريق الأردن لدعم البناء في القدس خاصة للعائلات المنكوبة، فحين خرج أبو ربيع من السّجن كان البناء في المرحلة الأولى وقد شارك أولادَهُ في العمل قبل الانفصال وانتقل ربيع من بيت كان قد استأجره عند أحد أقربائه لمدة ثمانية أشهر إلى بيته الجديد في الطبقة الأولى وقد حدّث إخوته كيف كان يُسدلُ ستاراً من خيشٍ على باب البيت قبل تركيب الباب الخشبيّ واكتمل البناء تدريجياً حتى استقر على ثلاثة طوابق لكل أخٍ طابق، أما الأخ الأوسط فقد استأجر بيتاً بعدما تزوج ثم جمع

بكده وتعبه مالاً بنى به بيتاً بجوار أشقائه، وقد اشترى شقيقاهُ شرقيّ القرية قطعةً من الأرض بقيت بعد بيع أبيهما لحصته من أرض جدهم بعد تقسيم الأراضي بين أبيهم وعمهم.

كان أبو ربيع قد أعاد زوجته الثانية التي طلقها وهو في السجن وقد أنجبت له ابنة وُلدت هي وأخيها من أبيها في الشهور الأولى التي سُجن فيها وكانت تعيشُ مع إخوتها وأختها التي تزوجت في الأردن؛ لكنها لبثت قليلاً عند أبي ربيع وطلقها مرة أخرى، وقد كان يبيع الملابس التي يشتريها من الخليل ويسترزق من تجارته.

وبعد بحث حثيث عن زوجة ثالثة فقد وفقه الله عن طريق زميل له أيام السّجن بالتعرف إلى زوجة تواصل معه مسيرة الحياة، وقد التقاه في المسجد الأقصى المبارك وحدّدا موعد التعرف إلى زوجة المستقبل، وقد بارك الله هذا الزواج، وأنجب أبو ربيع من زوجته الثالثة خمسُ بناتٍ وثلاثةُ أولادٍ، وكان لزوجته أبناءٌ آخرون من زوج توفي بحادث رحمه الله وبنات أخرياتٍ زوجهنّ أبوربيع من أبناء قريته وأنجبن أولاداً وبنات بفضل الله.

وقبل ذلك أنجبت زوجة ربيع ابنتها الأولى بعد شهرين من خروج أبيه من السّجن، وقد فرح بها ربيعٌ أيما فرح لأنها البكر ولأنها أشعرته بجمال الأبوّة، وتزوج كذلك شقيقه الأصغر منه سناً من إحدى قرى عكا

وفرح الجميع بهذا الزواج لحبّهم لعكا وبحرها وتاريخها، وكان شقيق ربيعٍ يعمل موظفاً في إحدى مناطق عكا.

حين أُغلِقَ مصنع القماش الذي كان يعمل فيه ربيعٌ العام 1990 كان قد مضى على الانتفاضة الأولى ثلاث سنوات وهي تزحف بصعوبة نحو الشمس، وكان راتبه وزملاؤه شحيحاً لِشحِّ أصحابِ المصنع بالرغم من العمل من الساعة السابعة صباحاً وحتى الرابعة عصراً، وحصل على أتعابه وهي خمسة آلاف شاقل، وكانت الفترة التي بين تخرجه من الكلية عام 1982 وعمله في الورش وفي المصنع هي ثماني سنوات- منهنّ مدة خمس سنوات في المصنعِ الذي أُغلِقَ العام 1990- والسنوات الثلاث التي قبل العمل في المصنع قضاها في العمل مع صديقه سمير في أعمال مختلفة. بعد هذه السنين العجاف سخّر الله تعالى لربيع العمل في نطاق شهادته في جمعية أموال الزكاة التي تشرف على مدارس رياض الأقصى في البلدة، وسُرّ كثيراً بهذا العمل وخاصة لما بدأ يقطع الإيصالات للطلبة من أقساط وتبرعات ويطبع على الآلة الكاتبة اليدوية القديمة التي أصبحت بعد سنة أو سنتين مجرد ذكرى جميلة ليحلّ مكانها أجهزة الحاسوب التي شوهدت لأول مرة في المدرسة بعد منتصف العام 1994 تقريباً، ورأى فرقاً شاسعاً بين الطباعة على الحاسوب والطباعة على الآلة الكاتبة القديمة والتي كانت قبل الحاسوب مبهِجةً.

الفصل السادس

سمير وربيع

تنقّل سميرٌ صديق ربيعٍ في أكثر من عمل كحالنا جميعاً ولم يفترقا بالرّغم من افتراقهما في العمل فهما أصدقاء منذ الطفولة منذ العام 1966 حين كانا في الصف التمهيدي، والمدرسة التي درسا فيها مرحلة التمهيدي هذه ما زالت موجودة، وقد درس فيها أبناؤهما وأحفادهما، وكذلك ما زالا يتزاوران ويتسامران ويحللان الأحداث في ميادين الثقافة والعمل والاقتصاد والاجتماع والسياسة وخاصة الحالة الفلسطينية التعيسة والوضع العربي، وفي النهاية يحوقلان. ثم لا يلبثا أن يتبادلا الطرائف والنكات والأحاجي والألغاز وكان ذلك ملح حياتهما، ثمّ يتذكرا أيام الصف الأول الأساسي ومعلمهم عثمان مُدرّس اللغة العربية حين كانوا يقرؤون بصوت عالٍ مع طلبة الصّف:

دار ماري في يافا/ دار نوري في حيفا

عائدة ورائدة وماري ثلاثُ بنات؛ فيبتسمان بسمة الشّوق لتلك الأيام.

قال سمير: هل شعرت بمرور السنين وانسيابها كجدولٍ في حديقة، وكيف ترفعنا من صفّ إلى صفّ؟

قال ربيع: كنّا نكرهُ أيام الدراسة فقد كانت كالسّجن بالرغم من شقاوتنا أيام الدراسة وإزعاجنا للمعلمين، وضربهم إيانا إلا أنها أيامٌ جميلة.

قال سمير: لكنّ الفرحة كانت آخر العام فرحتان حيث كنا نستلم الشهادة وفيها علامة النجاح والترفيع للصف الأعلى، والعطلة الصيفية التي انتظرناها بشوق ستحتضننا بدفء.

قال ربيع: صدقت؛ فما زلتُ حتى اليوم أحبُّ يوم الخميس لأنّ اليوم الذي يليه هو يوم عُطلة أسبوعية، وما زال كذلك حتى الآن، وما زلتُ أحبّهُ حتى الآن لأنني أشعر فيه أنّني ألقي عبء أسبوعٍ خلف ظهري؛ فكيف لمّا تكون العطلة شهوراً!

قال سمير: بل أصبحت العطلة بعد الخميس يومان حتى في بعض الدول العربية ألحقوا بالجمعةِ السبتَ.

قال ربيع: بلى، وحتى في المدارس، وربّما يُلحِقوا بهما يومَ الأحد.

ثمّ سألهُ ربيع: ما أخبار أخيك الأصغر، وهل ما زال يتمرّن حتى هذا العمر؟

قال سمير: ما شاء الله حفظه الله فما زال يتدربُ وحده حتى الآن، وكنتُ وإياكَ نتدرب معه في حمل الحديد والأثقال وقد فتح بيته السفلي نادياً لنا، وكنا نتصبب عرقاً، ونشرب بعد التمرينات الحليبَ والبيضَ مخفوقاً فيه أم نسيتَ هذا؟

أجاب ربيع: بارك الله فيه، فقد جعل من بعض بيته نادياً لأقربائه حباً للرياضة ولأقربائه.

قال سمير: أتذكّر عندما كنا نعمل في الورشة ونرى سيارة الحجارة قادمة ونحن على سطح الورشة، فننزل بسرعة إلى المسؤول ونطلب منه قبلَ العمال أن نُفرغها مُقاولةً عن يوم، فتأتي السيارة الساعة الثامنة ونكون قد أجهزنا عليها الساعة التاسعة، فيُسجّل لنا على البطاقة ثماني ساعات ونعود إلى أسواق القدس مسرورين، ومن ثمّ نعود إلى بيوتنا ظهراً.

فأجاب ربيع: وما زلنا والحمد لله نستطيع فعل ذلك الآن.

فأجاب سمير مبتسماً: بلى.. بلى، فنحن أبناء أشجار التين والزيتون، وعمّتُنا النخلة ودواؤنا من النحلة.

قال ربيع مبتسماً: وممّا لا أنساه حين ذهبنا حاملين فأساً ودلواً ومِجرفةً نبحث في أطراف القرية عن الكنوز الرومانية، فبلادنا كما يقولون مليئةً بالخِرَبَ والأديرةِ والكنوز، لكنها جميعها مرصودة كما يُقال، فكنا ننبش في

الآبار التي كان يستعملها الرومانَ معاصِرَ للعنب فنجد بعض قطع الفخار القديم المُحطّم، ووقتذاك كنا خائفين حذرين من مراقبة المراقبين؛ فيمرّ بنا رجلٌ كبير ويقول: لا تُتعبوا أنفسكم حُفِرت هذه البئر التي تحفرونَ عشرات المرات قبلكم وطُمرت، فَنبْتئسُ ونيأسُ ونعود أدراجنا متعجبين ومتسائلين عن فلانٍ صاحب تلك المشاريع الكبيرة كيف وجد كنزاً غير مرصودٍ، وهل من الكنزِ غِناه؟

قال سمير: دعك منه، والرزق على الله، وبما أننا في هذه المنطقة فقد تذكرتُ حين كنا نبذرُ حبّ الحمص في أرضك القريبة منها، وكانت طائرة الاحتلال تصول وتجول لأمر ما، فعدنا وكانت تحلق فوقنا، وخشينا أن تقصفنا لأنها كانت تطير فوقنا تماماً، وأرسلوا سيارة شرطة وحضرت إلى حارتنا وتحققوا من الموضوع وبأننا كنا نبذر الحمص في الأرض، ولم يكن عندنا أحدٌ من سكان الضفة، إذ حسبوا أن أحد الضفّيين قد تسلل عبر أرضنا وعاد معنا للقرية، أو ربك وحده يعلم فقط ما هي شكوكهم.

أجاب ربيع: الله ستر يا رجل، يشكون في كلّ شيء، والحمد لله أنهم لم يقصفونا في السيارة وهم يحلقون فوقنا.

قال سمير: هذه هي حياتنا، لا أمنَ ولا أمان، والله المُستعان.

ثم ما لبثا أن خاضا في بحر السياسة كالعادة بعدما فتحا جهاز التلفاز، فقال ربيع: قرأتُ مرّةً أن تعاونَ الناسَ يفقِدُ الأنظمة قوّتها.

قال سمير: أصبحتُ أكره هذه الأمة البليدة التي لا تحسّ ولا تشعر، فقدت كل معاني الكرامة؛ أمة ميتة يا رجل.. الله يفرجها ويُغيرَ الحال. يا رجل كنا أيام الانتفاضة الأولى وأقصد أيام البيانات نقول: وما تصنع هذه المنشورات، وهل ستغَيّرُ شيئاً، فقال أحد المصلين الحكماء: دعوا أهل الخير يلقون البذور في الأرض، وستثمر يوماً ما، حتى لو أثمر بعضها فلا بأس.

قال ربيع: كدتُ أضحكُ ونحن في صلاة العشاء قبل التسليمةِ الثانية حيث تبدأ المنشورات بالتساقطِ كالثلجِ الأبيض على رؤوسنا من الملثمين الذين يختفون كالجنّ.

ثمّ تابع ربيع حديثه: فلربما كما قال ذلك الرجل أنّ البذور قد أثمرت بعد تلك السنين.

قال سمير: أرجو ذلك، وليس على الله ببعيد، لكنني أضجرُ أحياناً مما نحن فيه في هذا الزمن، وأحياناً أشعر باللامبالاة حتى أنّني أصبحتُ مهما سمعتُ من أخبارٍ لا أبالي، ذهبت البركة من الدنيا، فلا بركة في الوقت ولا في المال ولا في الشجر، وذهب الحياء من الناس.. تسير في الطرقاتِ فترى الرجل يلبسُ ثياباً مستورة والمرأة متكشّفة، وتفتح التلفاز فترى

نساءً يرقصْنَ بجنونٍ وهستيريّة، والرجل الأرعنُ يتكلم في شؤون الناس ويمشي مع المُصلحين والرجل المتعلم محجوبٌ.

قال ربيع: والله لا يُغيظني أكثر شيء إلا هؤلاء الحَسَدَة والبخلاء؛ فلو أنهم مؤمنون حقّاً لما حسدوا الناسَ ورضوا بقضاء الله حتى الفقيرَ يَحسدونه على فقره يا رجل! يا صديقي كلّ هذه الأمراض التي في الناس سببُها ضعف الإيمان، فلو حضر رجلٌ وطلب ابنة فلان ولم يَحْدثْ نصيب في هذا الزواج تَراهُ يُقاطعكَ وتُصبحَ عدوّهُ؛ فما هذه السّخافةُ في الناس وما هذا الجهل وقد قسّم اللهُ الأرزاقَ سواءً أكانت علماً أو مالاً أو عقلاً أو صِحّةً أو زوجةً، وأنّ قِسمةَ الله بلا أدنى شكّ عادلة.

ثم تابع سميرٌ متنهداً: يا رجل حين تشتري سيارة وحتى لو كانت قديمة ومستعملة فترى البعض بدل أن يقول: ما شاء الله تبارك الله يقول: واوْ، أو: واه وما شابه من عبارات دخيلةٍ ساذجة، ما جعل البعض يعلّقُ الخرز الأزرق لردّ العين.

قال سمير: سببُ ذلك الجهلُ وضعفُ الإيمان كما قلتَ، والجاهلُ عدوّ نفسه، وتعليق الخرز شركٌ ليسَ بخفيٍّ، وقد بدأت تتلاشي هذه الأشياء، وحتى لصْقُ العجينة حين تدخل العروس بيت الزوج بدأ يختفي فالشرك ظلم عظيم ولا يغفره الله تعالى؛ لذا يجب الإكثار من دعاء محو

الشرك وهو: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه.

قال ربيع: تلك الأشياء وغيرها كمنع إعطاء البنات حقهنّ من الميراث مثلاً من معوقاتِ النصر، وإن أعطينّ فشيٌ يسيرٌ، وحتى المحبة اختفت بين الأقارب وصلة الأرحام تكاد لا تكون إلا في الأعياد نحن بحاجة إلى إعادة برمجة كما يُبرمج الحاسوب.

قال سمير: قال لي مرة زميلٌ في العمل لّما سألته متى ننتصر؟ فأجاب: إذا صدقنا ننتصر، فأجبتهُ: صدقت.

وتابع سميرٌ حديثه تعليقاً على جواب زميله في العمل عن الصدق فقال: كان عندي عصفورٌ أبيض في قفصٍ أيام الحرب على العراق في شرفة بيتي الشرقية حين كان صدام حسين رحمه الله يُطلق الصواريخ على إسرائيل، وكانت صفّاراتُ الإنذار تدوّي والمذياع الإسرائيلي يُحذّر الناس من الصعود على أسطح المنازل ويوجههم إلى الاختباء في الملاجئ، فلا يعبأ الناس بالتحذيرات ويخرجون إلى أسطح البيوت لينظروا إلى الصواريخ الضخمة المضيئة وهي تهوي بعدما تختفي عن ناظرينا محدثةً صوتاً هائلاً، فلم يكن الناسُ يعبؤون بالموت، ولم أكن مقتنعاً بأنّ الصواريخ كانت تحملُ رؤوساً كيماوية حتى حين كنتُ ألصق النوافذ باللاصق البنيّ السميك والذي أطلق الناسُ عليه وقتذاك لاصق صدام،

فقلت لما كنتُ ألصقه على النوافذ: إذا مات العصفور الأبيض فهو دليلٌ على تسرّب المواد الكيماوية، ولم يمت، وأطلقتُ سراحه بعد انتهاء الحرب.

ذكرتُ هذا يا ربيع لأنني أعلم أن العالم مليءٌ بالكذب، وكان عند العصفور الأبيض الخبر اليقين، ويقولون إنه يوجد مؤسسات لتعليم صناعة فنّ الكذب في السياسة وغيرها.

أنهى سميرٌ كلامه ورأى صديقه سارحاً فداعبه سائلاً مازحاً: هل كنت أكلم شجرة؟

فأجابَ ربيعٌ مبتسماً بعدما حوّلَ قناة التلفازِ إلى محطةٍ أخرى باحثاً عن قناةٍ إخبارية: أنا معك ومع صديقك بشأن الصدق، ولكنّي أضيف أنّ المعاملة الحسنة هي التي تسيرُ بنا نحو المعالي؛ فما فائدة الصلاة والصيام والزكاة والحج والقيام ليلاً إلى صلاة الفجر فما فائدة كلّ ذلك إذا كانت معاملة الناس والأقرباء والجيران سيئة؟

قال سمير: والله معك حقّ، فقد قال نبيّنا عليه الصلاة والسلام: (الدّينُ المعاملة).

قال ربيع: كم أحِنُّ إلى الماضي وأيام البركة حين كان يروي لنا آباؤنا كيف يجتمع كل أبناء القرية ليساعدوا في بناء بيت أو حضور عرس أو تشييع جنازة. حتى شكل قريتنا تغير واختفت الجُدُرُ الحجرية التي حلّ

مكانها اليوم الأسوار الإسمنتية واختفت الكوفيات البيضاء والطوابين وحتى الطيور والأغنام، وأصبحت البيوت القديمة المقببة كالآثار القديمة وحل مكانها بيوتٌ كالقصور.

وتابع ربيع: وهذا يذكرني بشيءٍ حلّ مكانه شيءٌ أفضل منه فهل تعرف ما هو؟

قال سمير مصطنعاً الدهشة: وما هو؟

قال ربيع: الثوب المطرّز، فقد حلّ مكانه الجلباب وخرج عن نطاق السيطرة وتجاوز قريتنا إلى القرى الأخرى وشاع في كلّ البلاد حتى ضجر الأعداء منه.

قال سمير: هذا ليس جلباباً إنه دينٌ وسيبلغ مشارق الأرض ومغاربها بإذن الله، ولا تنسى ازديادَ محطاتِ الخير.

قال سمير: ازديادها هذا أمر حتميّ، والذي يجعلنا نتشوق لمستقبلنا المشرق ما نحن فيه من ضيم، ولكني سأغير هذا الموضوع لأذكرك بأيام زمان ودسائسها الغامضة، فلا شكّ أن ما نعانيه يعانيه كافّة أبناء وطننا الحبيب. هل تذكر ونحن أبناء خمسة عشر عاماً أو ستة عشر عندما كانت تُرجم دار أبي إسماعيل، ولم نكن نعلم من الذين يرجمونها وكنا في بيت الدّرج نراقب من الثقب الذي حفرناه ولم نكتشف أحداً، وقال الناس أن الجنّ هم الذين يرجمون؟

أجاب ربيع: وهل هذه الحوادث ومثيلاتها تنسى؟ لكننا كنا ساذجين حينما اختبأنا وتنكرنا وحملنا العصيّ وخرجنا من بيت قديم لنوهمهم أننا الراجمين، فما أجهلنا لمّا فعلنا ذلك.

قال سمير: بل كنا نحب الإثارة ليس إلا ربما بسبب مشاهدتنا لأفلام (بروس لي).

فضحك ربيع وقال: هذه قصة الرّجم ألم تدهشك فقد حدثت حادثة مماثلة في حارتنا واستمرت أسبوعين أو ثلاثة بين أقربائنا كما تعلم وحتى الساعة لا ندري من كان يرجُم بالرغم من المراقبة الشديدة.

قال سمير متنهداً: والله شيء محير، وربما هذه الأصابع الخفية السوداء أعجبها هذا الأمر لما له من أثر في التفرقة بين الأقارب، والحلّ بسيط: تشكيل فرقة موثوقٌ بها تراقب وتحقق وتعاقب دون توسيع دائرة الفوضى، وحتى لو لم تعاقبهم تنتظر انجلاء واندحار الذين وراءهم وحينها يُحاسبوا لمّا يأتي الخبرُ العاجل.

ثمّ دَعَوَا اللهَ ألا يعيد على القرية وغيرها مثل هذه الأيام التي لم تكن الحارة تنام فيها حتى طلوع الشمس، وحَوْقلا وافترقا.

الفصل السابع

المداهمات

حين أشرفت سنة 1993 على الانتهاء، أصبح لربيعٍ بنتان وولد وكذلك لصديقه سمير، وقد مضى على عمله موظفاً في جمعية الزكاة ما يقارب الثلاث سنوات، وكان متوجّساً حين تجوب الدوريات العسكرية البلدة والمرافقة لسيارة المخابرات المدنيّة الهيئة، ويتناقل الشباب الأخبار بسرعة عجيبة ويقولون: أعطوا فلاناً موعداً للمقابلة،وأعطوا كذلك فلاناً ورقة لِيقابل المخابرات يوم كذا، حيث يذهب الشاب المطلوب والمشكوك بهِ إلى المحقق المسؤول عن القرية ليحقق مع الشاب ويحذّره من الانزلاق في السياسة وأعمال العنف ويعود إلى بيته، أما أصحاب النفوس المريضة فقد كانوا سريعي الاستجابة حين دعوتهم للعمل مع المخابرات وإغرائهم بالمال؛ وهم أقلة، تلك الأمور ذكّرت ربيعاً بأيام الانتفاضة الأولى العام 1987 حين كانت القرية مُرَدّمَةً جُدُرُها الحجرية من أسفل القرية إلى أعلاها حيث لا تستطيع قوات الجيش الدخول

بسبب الحجارة التي في شوارع القرية وانقطاع الكهرباء وشباب القرية الملثمين يصولون ويجولون فيها.

سهر ربيع كالعادة على التلفاز متنقلاً بين قناةٍ وقناة من الأخبار إلى مشاهدة تمثيليةٍّ أجنبية أو مسلسلٍ عربيّ هادفٍ ينقل صورة من أمجاد الماضي العريق ليتنسّمَ فيه عبق الماضي الزكيّ والذي أصبح يعيشُ فقط في رفِّ الذاكرة، أو يطالعُ كتاباً، أو يكتبُ خاطرةً جالت في ذهنهِ فمالت حبراً على الورق، ثمّ نُشِرت. ولا يخلو هذا المشهد من مرافقةٍ إبريق الشّاي الذي لا يخلو من النعناع أو ضرّتِهِ الميرمية.

وذات ليلة من تلك الليالي بعد أن هجعت العيون وانتصف الليل صحا ربيعٌ على صوت أمهِ توقظه من نومهِ خائفةً وجِلَةً وهي تقول بصوتٍ مرتعش: ربيع قُمْ استيقظ الجيشُ يطرقُ الأبواب.

صحا مُدهَشاً حائراً، فإذا بهم في البيت مع المسؤول أمنياً عن القرية وحوله حُرّاسهُ من الجنود، وسألوا ربيعاً عن اسمه وهم يفتشون غرفته وسألهم: ماذا تريدون؟

قال المسئول: نريدك خمس دقائق في المسكوبيةّ. فقال ربيعٌ في نفسه: ربما يريدون التحقيق معي وأعود؛ إن شاء الله خير.

وبعد الخروج من البيت والابتعاد قليلاً عنه جعلَ الجيشُ وجهَ ربيعٍ لحائط في الطريق وغطوا عينيه وربطوا يديه خلف ظهره بإحكام

وأصعدوه إلى الجيب، وقد بدا من الجلبةِ والأصوات أنهم كانوا يقومون بحملة اعتقالات واسعة، وأن هناك أكثر من جيبٍ وأكثر من معتقل.

وبعدما يقارب الشهر من التحقيق والشّبحِ والحجز في الزنازين حُكِم على ربيعٍ بالسجن خمسة أشهر وبغرامةٍ مالية بقيمة 1500شاقلٍ وبالسجن مع وقف التنفيذ ثلاث سنوات، وكلّ ذلك بسبب كلامٍ واتهاماتٍ باطلة، وخرج من السجن كأنما خرج من قبرٍ بالرغم من قِصَرِ فترة الحكم.

إلا أنه بعد الخروج من السجن شعر بشيءٍ من الارتياح لتجاوزِ هذه الفترة العصيبة، وقد فرحَ أقرباؤهُ وخاصةً أمه والتي كانت أكثر فرحاً به من غيرها.

عاد ربيعٌ إلى عمله في المدرسة ليتابع الحياة ومجرياتها فمهما حدث فهو بالنسبة لغيرهِ ككرةٍ في ملعب.

وأجمل الأشياء التي كانت عزاءً له في سجنه اجتماعَهُ مع بعض أقربائه في السجن وسمرهم وخاصة مع قريبه وصديقه الذي كان يلعب معه الشطرنج، والذي يصغره سناً ولطالما سُجن، وكذلك من الأشياء المسلية التي كان يلعبها المساجين لُعبةُ الصّمت والإشارة بالأيدي لمحاولة من يعرف أولاً الشيء أو المسرحية أو اسم التمثيلية أو الأغنية أو المسرحية التي أضمرها السائل. لكن في المقابل ومن الذكريات المريرة في السجن

حين يعاقب أحد الزملاء بالسجن الانفراديّ أو بمنع الزيارة عنه أو حين تداهم الشرطةُ الغرفةَ فتجعل عاليها سافلها، لكن بالنسبة لربيع فقد كان شهر رمضان الذي قضاه في السجن الأصعب على نفسه وخاصةً حين موعد الإفطار، فيتذكّر أهلهُ وكيف كان يفطر معهم وهو الآن في السجن وكذا يومُ العيد أصعب. أما في سنةِ 2007 فقد سُجنَ ابن ربيعٍ، فخاطب ربيعٌ نفسه: الحمد لله على كل حال، فقد كان لأبي الحظّ الأوفر فمكث في السجن أكثر من ستّ عشرة سنة ومكثتُ شهوراً ومكث ابني أسابيع؛ لكنها بدتْ أحقاباً لأننا لم نكن نعلم أهو في الأرض أم في السماء إلى أن انجلت الغيمة السوداء بفضلٍ من الله ولطفٍ ورحمة، وقد كان ابن ربيع يدرس في الأردن واتّهم هنا بأنه يقوم بنشاطاتٍ طلابية محظورة على حدّ زعمهم، وقد يسّرَ الله أمرنا بجمع المال للمحامي وبيع زوجة ربيع ذهبها لتسديد أتعاب المحامي. سارع ابن ربيع إلى العمل في مدرسة مجاورة لقريته ووفقه الله وعمل بجدّ ومُثابرة وخطبَ فتزوج واستقر حاله بفضل الله، وكذلك ابن عمه تزوج قبله وعمل بكدّ ونشاط وأصبح بفضل الله أباً. وكما كان ربيعٌ وسميرٌ صديقين وقريبين، فقد تواصلت هذه الصداقة كذلك مع أبنائهما بل وأكثر؛ فقد تزوج ابن سمير من ابنة ربيعٍ وأنجبا طفلاً محبوباً، وكان الجدّان يرقيّانه بالأدعية، ناهيك عن الأحفاد والحفيدات الأخريات الصغيرات الجميلات.

الفصل الثامن

سهرات الصيف

ما زال ربيعٌ مولعاً في كل إجازة صيفٍ بعمل رزنامة لشطب الأيام القهوية اللون والطعم والرائحة...

ثم لا يلبثُ أن يُفاجأ بمرور أسبوع أو أكثر لم يشطبْ فيجرّ عليها قلمه جرّة واحدة ببسمة شامتة، وما منا من أحدٍ إلا ومرّتْ عليه أيامٌ بطيءٌ شعاعُ شمس نهارها... ثقيلٌ شعاعُ نجوم ليلها.

في هذا الصيف الجميل أضافَ لإجازتهِ إجازةً حتى من عمل الرزنامة الممتع، وكالعادة يتخللُ هدوء هذا الصيف الحار صوت الباعة المتجولون ينادون الأولاد بصوت جهوري: (توتيا.. نحاس.. ألمنيوم) لشرائها منهم، فلكل فصلٍ عندنا تجارُهُ... ربما لأن قضيتنا قد تاجر بها القريب والبعيد والتاجر وغير التاجر.

كما يتخلل صيفنا كل سنة حزمُ أمتعة المشتاقين لزيارة الأقرباء خارج جدراننا، واستقبالُ العائدين من دراسة أو عمل لتسْتقبلهم جدرانٌ كثيرة قبل استقبالنا لهم.

وبالرغم من مهرجانات الصيف الكثيرة وخاصة حفلات الأعراس والتي تقلق هدوء النجوم السّاهرة إلا أن رحيل الصيف يكاد يكون أسرع من رحيل الربيع؛ لذا أجرى ربيعٌ اتصالاً هاتفياً مع الأمس في هذه الإجازة السريعة، وحين تحدثَ مع الأمس بادرهُ بالسؤال المعتاد عنهُ فأجابه: إنك أعرف مني بنفسي لأنني ما زلت أسمعك في نبضات قلبي وأحسّكَ تسري في شراييني، وكلما ابتعدتُ عنك رأيتك أكثر وضوحاً.

كانت على طرقات الأمس التي مرّ بها زهورٌ ذات أوراق فضية، ولما تاهَ في طرقات المستقبل وعادَ ليمرّ بنفس الطرقات، أو لِتمرّ بهِ تلك الطرقات رأى تلك الزهور أضحتْ أشواكاً، وما زالت تطوّقها الأوراق الفضية، ولما اقتربَ من إحدى تلك الأوراق رأى نفسهُ فيها؛ فإذا بهِ ما زال كتلك الزهور التي كانت بالأمس.

سِحْرُ القريةِ يكمنُ في بساطتها وهدوئها وأشجارها وخاصّة أشجار التين واللوز والزيتون والكرمة وكذا أشجار الياسمين التي تعبقُ رائحتها السّحرية في القلب قبلَ الأنف فتُذكي في النفسِ شعوراً سحرياً، فكيف الرّوحُ والريحان في الدار الأبدية العُلويّة.

فمرّةً يسمرُ أقرباءُ ربيعٍ عنده وإخوته تحت شجرة الزيتون يتسامرون ويتحدثون أيام الفرح والترح وما بينهما، ومرة عند صديقه سمير ومرة عند أبناء عمومته ومرة عند أبناء عماته.

ولأنه لا راحة في الدنيا فقد كان يُعكّرُ صفوَ تلك الليالي وينغّصُها- بين الفينةِ والأخرى- سماعهم صوتَ صُراخٍ وصياحٍ وجَلَبة، وما يلبثُ أن يأتي صبيٌّ خائفاً لاهثاً قائلاً: وقعت مشكلةٌ بين عائلة فلانٍ وفلان، فيقوم الجميع مسرعين لاستطلاع الخبر وللحجز بين المتخاصمين.

كادت تلك المشاكل أن تصل لكلَ بيتٍ في القرية خلال سنوات مضت.

وقد حدثت مشكلة مع إخوةِ ربيع من أبيه وأقربائهم وتفاقمت المشكلة حتى حلّها المصلحون الذين لا يكادون يلتقطون أنفاسهم من حلّ مشكلةٍ حتى يذهبوا لحلّ مشكلةٍ اخرى.

إحدى بناتِ زوجة زيدٍ كانت متزوجة عند ابن قريبه، وحدثت بينها وبين شقيق زوجها مشكلة بسيطة لضربهِ ابنَها، فعلم أحدُ إخوتها بالخبر وأراد أن يضرب من ضرب ابن أخته، فلما ذهب مسرعاً ولم يجدهُ حطّم زجاج سيارته وعاد إلى بيته.

وحين حضر المصلحون واجتمعوا في بيتِ قريبٍ لمن هُشّمَ زجاجُ سيارته قررّ المصلحون أن يدفعَ أبا ربيعٍ ثمن الاعتداء على السيارة، ويدفع أصحاب السيارة ثمن ضربِ الولد، غير انّه أثناء التفاوض بهذا الكلام حدثت مداخلات من شبابٍ متهورين من الجهتين تخلّلتها مسبّاتٌ وكاد الأمر يصلُ للضّرب، وغادر أبو ربيع ومن معه المجلس.

جمع الفريق الذين تهشّم زجاجُ سيارتهم أقرباءهم وصاروا يرجمون بيت أبي ربيع والناس يزجرونهم ويقولون لهم: ماذا تفعلون أجُننتم؟ فلم يسمع أحدٌ ولم يكترثوا واستمروا بالرجم، والعجبُ أن بعض أقرباء أبي ربيعٍ شجع على الرجم والناس في الشارع بالمئات، حتى أن الكثير منهم وقف مكتوف اليدين ولم يتفوّه بكلمة ولم يحجز بين المتخاصمين إلا القليل.

وكالعادة تحضرُ الشرطة دوماً متأخرة فتجلسُ عند الفريقين، وكالعادة يرفضون التدخل ويقبلون بالحلّ العشائري، ولما تتأكد الشرطة أنّ الفريقين وافقا على الحل العشائري تنصرف.

بعد هذه الحادثة تأثرت نفسياتُ أبناء أبي ربيعٍ ونظرتهم إلى أقربائهم ليس بسبب عدم وقوفهم إلى جانب أبيهم وإنما على الأقل بسبب عدم الحجز بينهم ووقوفهم ينظرون للراجمين، فمهما كانت الأسباب التي منعتهم من التدخل ولو خوفاً ؛ فلا عُذر لهم.

اجتمع أبناء أبي ربيع ذات خريف مزمجرٍ بصوتٍ غاضبٍ يغازلُ صوت غضبهم ونفوسهم فيُترجمون تلك الزمجرات بكلماتٍ حبستهم ساعة من الزمن يتساءلون.

قال أحدهم: ليتني أخرج من قضبان هذه النافذة.

قال الآخر: ليتني أفيء إلى ظلّ صفصافة معي نايي وشويهاتي ترتع في الربيع بينما أرتعُ بين لونين: سماءٌ وعُشْبٌ بعيداً عن هذه المؤامرات والضّوضاء، ماذا يريد منا هؤلاء الجهلة؟ ومن وراءهم؟

قال الثالث: ليتهم ينصّبونني سلطاناً ولو شهراً على هذه القرية لأثبت للعالم أن بإمكاننا إحداثَ تغيير نحو الأفضل وسوف أجعل هذه القرية أفضلَ من المدينة الفاضلة.

ثم صمت الجميع فقال الأخ الأصغر: هذه الأمنيات لا تُفيدنا وهذا التغيير ليس صعباً ويمكن تحقيقه إذا كان هناك من يُطيع.

قال ربيع: قبل الطاعة يجب على الجميع إزالة القضبان، فلكلٍّ منا قضبانه التي تسجنه وكلّ منا أدرى بإزالة قضبان نفسه، وحالتنا هذه أنموذجٌ مصغرٌ لحالة الأمّة.

فضّل أبناءُ أبي ربيعٍ العُزلةَ وتجنّبَ الاختلاط بأقربائهم وخاصةً الراجمون، فقد جُرحَ ثلاثةُ أبناءٍ من أبناءِ أبي ربيعٍ، وشخصٌ واحدٌ من الفريق الآخر وحدث سبٌّ من الجهتين، لكنّ الرجم حدث من الفريق الآخر، فزاد الطين بلة عندما تواطأت لجنة الصلح مع الفريق الآخر لأسبابٍ شبه غامضة للبعض ومعلومة للكثيرين. فالأوْلى أن تذهبَ الجاهةُ لإحضار الفريق الآخر إلى بيت أبي ربيع أو على الأقل في بيتٍ محايد لا أن يذهب أبو ربيع وأولاده إلى بيت الخصم بغض النظر عن

خوف أبي ربيع على أبنائه في أن يتورطوا بفعل من شأنه أن يقلب الأمور رأساً على عقب، إلا أنّ الأمور سارت هكذا ولم يذهب ربيع إلى حضور المصالحة احتجاجاً على الضيم وتأبى نفسهُ الظلم، وقد أشار إلى أخيه أثناء الجلسة التي اتفقوا فيها على هذا الأمر ليكلمه على انفراد وقال له: ما هذا الظلم والإجحاف، فبالرغم من كلّ الذي حدث قبِلَ أبي ويريد أن نذهب إليهم حتى أنهم لم يقبلوا بالاجتماع في بيت محايد.

فأجاب أخوه: أعلم ذلك جيداً مثلك، ولكن أبانا يخشى علينا من السّجن، ولا يريد أن تتفاقم الأمور وهو يعلم أننا نحن الأقوى ونستطيع فعل كلّ شيء ولكن من الحكمة ألا تصل الأمور إلى حدّ نقتل بعضنا فلنحتسب عند الله، ولجنةُ الصلحِ حسابها عند ربها.

قال ربيع: صدقت يا أخي ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبالرغم من ذلك، فقد كانت فتراتُ جميلة في حياة إخوة ربيع كتواعدِهم لزيارة أختهم في القرية المجاورة لقريتهم، والسؤال عن حالها وأبنائها، وخاصّة أنّ زوجها مرض منذ سنوات ووضعه صعب جدّاً، فيواسونها ويدعون له بالشفاء، فليسَ له إلا الله، فحالة زوجها ما يشبه الموت السريري فهو لا يتكلم ويبقى على كرسيه ولا تتحرك إلا عيناه ناظراً إلى اللاشيء وكلما زاره أقرباؤه جلسوا عنده صامتين يتأملون في وجهه الموت والحياة في آنٍ واحد سائلين الله له الشفاء.

مكث على هذه الحالة أكثر من ست سنوات، وكلّ سنة يرجو له أهله وأصدقاءه الشفاء لأنهم سمعوا أنّ مريضاً كان بمثل حالته مكث أكثر من عشر سنوات وشوفي بإذن الله.

الأخت الصابرة

بعد ما يزيد على سبع سنوات عجاف من مرض زوج أخت ربيع اختاره الله إلى جواره، فهو الذي أمات وأحيا وأضحك وأبكى؛ وتأمل ربيع في الموت فقائل يقول رأيت فلاناً بالأمس وقد كان بصحة وعافية وقد ذهب إلى البقالة واشترى بعض الأغراض بالأمس وهو اليوم في عالم الأموات ولا نعرف متى ينادي المنادي بإعلان وفاتنا، فهذه هي الدنيا الفانية وهذا الموت يذكرنا بأنها دار فناء وليست دار بقاء لعلنا نقصّر فيها الأمل، لكن حين يرى الإنسان عذاب المرض يرى أنّ الموت رحمة للمريض ولأهله؛ لكنها حكمة الله التي تخفى على الناس.

وكانت أخت ربيع قد عملت بكدّ ونشاط كباقي نساء هذا الشعب الصامد وعلمت أبناءها أثناء مرضه الطويل وبعد وفاته.

وما زال إخوتها يترددون عليها وتنشرح صدورهم بزيارتها وبنيها.

شقيقة خارج الوطن

وعودة إلى الفترات الجميلة في حياة ربيع وإخوته وهي زيارة شقيقتهم في الأردن كانوا يزورونها كلّ سنة تقريباً، لكنّ المنغّص في الزيارات عذاب الجسر على الحدود والتفتيش والعذاب النفسي الذي يختبئ خلف البسمات الصابرة؛ لكن بعد اختراق الحدود والوصول إلى الشقيقة في البلد الشقيقة، فإنّ الشهر يبدو لنا يوماً ولا نعرف كيف ينتهي برواية ذكرياتنا ونوادرنا وحكايات حارتنا.

وعندما انقطع ربيعٌ فترة طويلة ولم يزُر عمّان ذهب يحْمِلهُ الشّوق كتب هذه الكلمات في تلك المدينة التي دوماً تغمره حباً وحريةً:

عمان

ما زال شارع حي نزّال على ما كان عليه قبل أكثر من عشرين عاماً حين كنت أتوجّه صباحاً إلى الكلية العربية، لكنّ الياسمينة التي كانت تستقبلني على مفترق بعض طرقاته قد اختفت وأصبح مكانها كرمة عنب... كما استبدلت بعض الأمكنة أصحابها من مطاعم وبقالات وحتى أسواق، والبقالة التي كانت لجدّي أصبحت لجدّ رجل آخر... والأطفال أبناء السبع سنين أصبح لهم أطفالاً، والبنفسجة المعشوقة ابنة الخمسة عشر ربيعاً أصبحت فروعها معشوقات.

إلا أن مطعم أبي تيسير الشعبي لبيع الفلافل والحمص ظلّ كما كان، أضفى صموده على حاله أنساً على نفسي لأنني مثله على حالي بالرغم من مرور تلك السنين، والمعاناة على الجسر كما هي أضفت أنساً من نوع آخر، إلا أنني اعتبرتها ضريبة مستحقة للقاء الأهل والأحبة.

حنينٌ من الماضي يناديني بين الفينة والأخرى أطفؤُهُ بزيارة خاطفة لمدينة عمان والتي كانت فيلادلفيا، وكما كانت القدس إيلياء، فأعود حاملاً في قلبي سلاماً وشوقاً من شرقيّ النهر إلى غربيه، وهذا النهر العريق حين أكون فوقه على الجسر؛ جسر الوصال... أشعر بمزيج من الفخر والقهر، الفخر لعبوره والقهر لظروفه، يجللُ ذلك رداء الصبر.

راودتني كلماتٌ من الماضي:

(بارك يا مجدُ منازلها والأحبابا *** وازرع بالورد منازلها باباً باباً)

أعشقُ زمن تلك الكلمات والتي كانت تسبق نشرة أخبار الثامنة، والتي ما زال يفوح من ذكرياتها رائحة كرائحة نبتة اللافندرا السحرية.

وبعد تلك الزيارة أو تلك الكلمات بسنوات كان في زيارةٍ مع إخوته عند شقيقتهم لحضور عرس ابنتها، فكانت كلّ الأيام التي قضوها هناك تشبهُ ما يُشبهُ النّعيم.

قابل ربيعٌ صديقه سميراً أثناء عودته فدعاه للدخول للبيت بعد المشاركة في فضّ الاشتباك وفي وجهه الأسف لما يحدث، فالمتخاصمون

أقرباء لهما، ولا تطاوع نفوس الأقرباء أن يميلوا مع أحد ضد الآخر، وكذلك لا يريدون أن يشمت الأعداء بهم .

قال ربيع: ألا تشعر يا صديقي وقريبي العزيز أنّ وراء تكرار هذه المشاكل أصابع خفية لا تريد لهذا الشعب أي استقرار أو هدوء في كل مكان وكل قرية ومدينة وحتى في كل عائلة، حتى نبقى مقصوصي الأجنحة عالةً على الأمم، وحتى يبقوا أطول فترةٍ ممكنة وهم يرقصون على آلامنا ويشمتوا بنا.

أجاب سمير: أكثر من مرة سمعت هذا القول من كبار السّن، وهذا لا يمنع أن يكون هناك بعض المشاكل البعيدة عن تلك الأيدي الخفية السوداء، لكن كثرتها وإيقاعها يوحيانِ بما تقول؛ وكانا قد اقتربا من بيت ربيع فقال لسمير: تفضل نكمل السهرة المؤلمة.

قال سمير: تصبح على خير فالوقت كما ترى متأخراً.

أجاب ربيع: وأنت من أهل الخير... سَلّم، وإن شاء الله أراك قريباً لعلنا نختلس ساعة هدوء وصفاء.

قال سمير: إن شاء الله.

في صبيحة اليوم التالي كان ربيعٌ جالساً على الأريكة ليستريح، وحضرت والدته لتسأل عما حدث، فأخبرها أن الأمر سينتهي على خير إن شاء الله.

قالت أم ربيع: لا تدع أولادك يخرجون، يكفينا ما عانينا في خوالي الأيام، وهذا ابنك الصغير حصل لأول مرة على علامة منخفضة في مادتين. فنادى عليه ربيع وحضر وأراد أن يضربه لكنه لم يفعل لوجود والدته فقال له: سأمنعك من التدرب مع عمّك في الكراتيه، ولن تذهب إلى الرحلات المدرسية حتى تأتيني بخمس امتحاناتٍ على الأقل بعلامات عالية، هل تفهم؟ أم أنك تريد أن تأتيني بالكؤوس والأحزمة فقط؟ الرياضة يا بنيّ أمر جيد، لكن الأهم منها الصلاة، ولا تصلي إلا إذا قلت لك صلِّ، أريدك أن تصلي وحدك، وأنت الآن في الثانية عشرة من عمرك يعني أصبحت رجلاً، هل تريد أن أحرمك من مواصلة تدريبك؟

فأجاب ابنه: إن شاء الله يا أبي سأفعل.

قال أبوه: ثمّ لا تجادل والدتك حين تأمرك بالبقاء في البيت، ولا تنسى أنّ العقوق من الكبائر.

قال الابن: حاضر يا أبي.

ثمّ إنه بدأ بإحضار الاختبارات المدرسية واحداً تلو الآخر حتى أحضر الخمس اختباراتٍ بعلامات عالية، فوافق ربيعٌ على ذهابه للرحلات واستمر في التدريب مع عمّه.

بعد أسبوع حضر سمير ليسهر عند ربيع وعملوا إبريقاً من الشاي بعد العشاء، ولم يكادا يرتشفان أول رشفةٍ حتى بدأت المفرقعاتُ في

السماء تدوي وتزمجر وتجلجل، فقال ربيع مداعباً صديقه: الله يستر.. يبدو أن إيران ضربت صواريخها النووية علينا. فضحك سمير وقال: ربما هذه شياطين هاربةٌ من الشهبِ الثاقبة.

مع الأسف أضحت أعراس الصيف للأسف من مُنغصاتِ فصلِ الصيف، وذلك لخلوّها من البساطة القديمة ودخول تقنية المفرقعات الصّاخبة عليها والتي تستمر بالفرقعة حتى بعد منتصف الليل، وكأن البعض من الذين يطلقون هذه المفرقعات كأن لسان حالهم يقول: قد أتتْ ساعة الانتقام والتباهي وهذا وقتها، فلا يرحمون الأطفال الصغار الذين يصيبهم الذعر ولا الشيوخ الكبار ولا المرضى ولا طلبة المدارس والجامعات ناهيك عن كلمات الأغاني الفارغة التي لا معنى لها؛ بل وتثير الاشمئزاز. ومن جهل الناس التباهي والتفاخر وكثرة المدعوّين وكثرة التكاليف وغلاء المهور وارتفاع أسعار الذهب والفرق الموسيقية وطباعة بطاقات دعوة فاخرة وعمل خيمة كبيرة للنساء وأخرى للرجال، فقد أصبح في القرية محلات تؤجّرُ الخِيامَ لهذا الأمر، وكذا للعزاء، وتؤجرُ الكراسي. ولما كثرت الشكاوى من الناس حثّ الخطباء- ومنهم أخو ربيع- الناسَ في المساجدِ على التواضع وتقليل المهور وعدم إطلاق المفرقعات وعدم تأخير السهرات لساعة متأخرة من الليل، وأصدروا وثيقة بهذا الأمر امتدحها خطباء المسجد الأقصى وشجعوا عليها.

تلك الصورة لأعراس الصيف كانت من معكّرات صفو الجلسات الصيفية التي ينتظرها الناس بعد رحيل الفصل الباكي والفصل الأخضر والأجمل.

الفصل التاسع

ربيع 99جيد

بعد أن تأخّرت الرواتب قليلاً في أحد الشهور عادَ ربيعٌ فتح جهاز الحاسوب في هذه الليلة الشّاتيةِ وفرح حين رأى أنّ الرّاتب موجودٌ في حسابه فانشرحت نفسه لكتابة خاطرة في هذا الشّتاء الجميل، وكان قبل ذلك قد اشترى نرْجِساً من سوق خان الزّيت في القدس من إحدى الفلاحات، وقبل ذلك بأيّامٍ وجد عصفوراً داخل بيته ألجَأهُ البْردُ والجوع للدخول من النّافذة، فجمع أفكارهُ وكتب الخاطرة تحت عنوان (عصفورٌ ونرجسٌ وشتاء):

كما تسوقنا الأقدارُ تسوقُ الأطيارَ، فقد تاهَ عصفور ودخل بيتي هذه الشتوة فأمسكته، ولعشقي للحرية استمتعت بإلقاء القبض عليه، ثمّ أطلقته. كان يقاومُ ويحْسَبني حابساً حريته، فينقرني ويحاول الإفلات، قدّمتُ له ماءً فأبى، وخبزاً فأكل ثمّ أطلقته لما يبحثُ الأحرارُ عنه.

هي أشياءٌ بسيطةٌ تحدث، فلا أعرف لمَ يلحُّ قلمي عليّ لتدوينها، فحتى حين اشتريتُ في هذه الشتوة من سوق خان الزيت نرجساً- زينتْ عجوزٌ

خضرةً تبيعها به- فقط رائحة النرجس السحريّة هي التي حثتني على الكتابة.

ولما وضع الليلُ على القرية عباءته السوداء، وضعتُ هذا النرجس في الكأس واشتريتُ منه عطرهُ بالماء، والماء في هذا الشتاء ليس ككل شتاء، والعزف على وتر الرعد في هذا الشتاء ككلّ شتاء، فقد كان مزعجاً ومواريا وراء إزعاجه خيراتٍ وبركات، كما تتوارى الولادة والحياة الأبدية خلف الألم والموت.

غالبا ما يختتمُ الشتاء معزوفته بإسدال ستارته الناصعة البياض على فرقته المعتادة والمكوّنة من الرياح حاملاتِ النایاتِ، ومدير الإنارة البرقُ اللامع، والغيوم العاليات الغاليات الباكيات، والرّعدُ الذي لا يقهقهُ طرَباً إلا إذا حميَ الوطيس.

وها هو الشتاء يكاد يلملمُ أشياءه تلك ويحملها على عربة الفصول الدائرة ليرحلَ مبتسماً، وليفسَحَ المجال للعازف الأجمل والأروع.

ونلملمُ نحن متعلقاته من مدافئ وحطب وقصص لنضعهنَّ في المخزن، وعلى رفِّ الذّاكرة فيه. فبعد الانتهاء من تلك الخاطرة اتصل ربيعٌ بصديقهِ وحيد لِيبَشّرهُ وليذهبَ غداً بصحبته لاستلام راتبهما.

عمل ربيع مع صديقه وحيد في وظيفته الجديدة منذ العام 1990- وكان قد أحصى مرةً أمام إخوته في إحدى سهرات الشتاء حول مدفأة

الحطب فوق العشرين عملاً بين أعمالٍ في الفنادق والمطاعم والورش والمصانع، وهذا شأن الكثيرين من أبناء هذا الشعب الذي لا يراد له التعليم والتفوق والتحليق كباقي أمم الأرض- ولكنه سَعدَ بتلك الوظيفة لكونها في مجال عمله وفي مجال التعليم وفي بلدته، فعلى الأقل لا يعاني من العنصرية، ونشأت صداقة حميمة مع صديقه وحيد، وكان يحبّ وحيداً ويحترمه ويشاوره في بعض الأمور.

سأله مرة عن الفترة التي لم يكن يعرفه فيها أين وماذا كان يعمل؟ فقاله له: كنت قد أنهيتُ مرحلة الثانوية وكنت أعتبر في تلك الفترة أنّ العشق أسمى شيءٍ في الحياة وهدفٌ يجب تحقيقه وللأسف وقعت فيه كأخينا قيس ولم أنسَ هذا الأمر وأتعافى منه إلا بعد ما يقارب العقدين من الزمن ندمتُ على ذلك واعتبرته شركاً وجهالة.

فقال وحيد: وكيف كان شركاً وجهالةً ؟!

قال ربيع: حين يجتاز الإنسان تلك المرحلة ينظر للعالم بمنظارٍ أوسع وأوضح فيرى أنّ الأمر الذي كان يعتبره شيئاً كبيراً كالعشق مثلاً يراه بعد الأربعين أمراً تافهاً وحتى لو كان حباً عذرياً، فاعتبرتُ ذلك جهالةً لأن المودة والرحمة تأتي بعد الزواج فلا حاجة لتلك الأمور التي أصبحت الآن الشغل الشاغل للشباب وحتى بعض الكبار، ودعوتُ اللهَ الغيورَ أن يُعيذني من أن أكون من الجاهلين.

وبالنسبة لكونه شركاً، فقد استنبطتُ ذلك من انشغالي عن كلّ شيء وتفكيري فقط فيمن أعشق ناسياً العشق الإلهيّ الأسمى، وقصة سيدنا إبراهيم عليه السلام حين أمره ربّهُ سبحانه وتعالى أن يذبح ابنه إسماعيل الذي كان يحبه، فلبى سيدنا إبراهيم الأمر ونوى أن يذبحه، فلما صدق ونفّذَ أمرَ الله وأخرج حبّ ابنه من قلبه وبقي قلبه كله خالصاً لله فداهُ الله بذبحٍ عظيم، وتكررت تقريباً نفس القصة مع سيدنا يعقوب حين كان يحب ابنه يوسف عليهما السلام فَحُجبَ عنه أربعين عاماً حتى صفا الحبُّ في القلب لله وحده أعاده الله إليه، والله أعلم.

لذا ترى أن كثيراً ممّن يعشقون ويتزوجون عن حبّ- ولا يرون شيئاً في الحياة إلا حبّ بعضهم البعض- ترى زواجهم لا يستمر ويفشلون كأن السّبب الحقيقيّ وراء ذلك: الشّركُ في المحبّة، ومعلومٌ أن الشرك ظلمٌ عظيم لذا يجب الانتباه لهذا الأمر الخفيّ.

فقال وحيد: بالرغم ممّا قلتهُ فلا يمنع ذلك أن نحبّ أولادنا وزوجاتنا ولكن لا نؤثِرُ على محبةِ الله شيئاً أليس كذلك؟

قال ربيع مبتسماً: طبعاً يا رجل.. طبعاً كذلك.

قال وحيد: انظرْ تحت تلك الشرفة إلى ذاك الشاب النحيل في الطريق هل تراه؟

أجاب ربيع: بلى أراه، ما شأنهُ؟

قال وحيد: قد أصابه العشق.

قال ربيع: ولكن في هذه الأيام أيام المصالح والمادة! فقد طغى حبّ المادة على الناس.

فقال وحيد: الفتى بعد سنّ السابعة عشرة يرسم في خياله صورة لفتاة أحلامه بمقاييس تناسبه ولا يدري أن ما يرسمه أمراً مستحيلاً.

وكان لكلٍّ منا فراشته الملونة الملوّنة التي تقطن في إحدى بساتين عقله الباطن ما نلبث في ذاك السّن أو بعده بقليل أن نرى تلك الفراشة أو ما يشبهها ترفرف هنا أوهناك، فنختارها دون سواها لموافقتها أوصافاً صنعتها بيئتنا ونفسيّاتنا فرُسِمتْ في مخيلتنا ما يجب أن تكون عليه تلك الصورة المعشوقة، لكنّ الكمال لله وحده ولن تكون الفتاة التي اختارها الفتى كما أراد، وحتى لو كانت فستكون لفترة وجيزة من الزمن، لا يلبثُ الحدثُ في الزمنِ أنْ يلاشيَ شيئاً فشيئاً تلك الصورة الظاهرةَ والباطنةَ لتلك الفتاة. وكأنما من نظرة ذات بعدٍ مختلف يقول لنا لسان الحال: إنّ في الحياة الآن ما هو أجمل مما كنّا نعتقد، فإليه يجب أن نلتفت.

أما ما يبحث عنه العاشقون في خيالهم فهو حقيقة موجودة في ما وراء الحياة الدنيا، ويمكننا تقديم المهر المناسب له الآن.

استمر وحيدٌ وربيعٌ في العمل معاً حتى ما يقاربُ العشرين عاماً، حتى تقاعد وحيدٌ من عمله، فغبطه ربيع على ذلك، لكن وحيداً كان

يحب العمل والاستمرار على الأقل لملء أوقات فراغه، بينما ربيع تمنّى أن تأتي فترة تقاعده بسرعة ليتفرغ للكتابة من ناحية، ومن ناحية أخرى ليرتاح من وظيفته في المدارس، ومن ناحيةٍ ثالثة فقد كان يعتبر العمل سجناً، وكان يرى أن العمل في الوُرشِ أحياناً أهون من العمل في المدارس، وقد حاول أن يسعى لتقديم طلب تقاعد مبكر وباء بالفشل، وسوّف الأمر كالعادة وقال: إن شاء الله السنة القادمة، قال ذلك عدة مرات أو سنوات.

قال ذات مرة لصديقه وحيد أثناء ذهابهما لاستلام معاشهما من الصرّاف الآلي للبنك العربي في بيت جالا القريبة من قريتهما: ترى إلى متى سيظلّ قُطاعُ الطُّرُقِ هؤلاء يقطعون علينا الطُرُقَ ويوقفوننا متى يشاؤون ويتلذّذون في الاستمتاع بمعاناتنا على هذه الحواجز النحِسَة، وإلى متى سنبقى قابضين على الألم؟ فأجاب صديقه: ربما نستحق هذا العقاب، ألا ترى أننا عانينا أكثر من ستة عقود والعرب والمسلمون يتفرجون علينا، وهم الآن يعانون ما عانينا بشكل مضغوط فكأن الشعوب الإسلامية كلها ستذوق من كأسنا ربما أمرٌ ما سيحصل بعد هذا؛ لعلّ المهدي يخرج هذه السّنة في موسم الحجّ، أجاب ربيعٌ آمِلاً.

فتبسّم وحيدٌ قائلاً: ليس بعد، فالأمة الآن لا تستحقّ خروجه، ويجب ألا نتّكلّ ونجلس منتظرين فقط، ألم ترَ حين كان المبعدونَ في مرج الزهور

جنوب لبنان، وكان بينهم مفكّر إسلاميّ عمل على دراسة رقميّة من القرآن الكريم وقال إن انتهاء دولة إسرائيل سيكون عام 2024، وحتى لو كان ذلك حقّاً فهل سنبقى نائمين.

قال ربيع: لكنّ الأرض ملئت ظلماً وجوراً ومن العدل أن تُملأ قسطاً وعدلاً؛ فالله سبحانه وتعالى حرّم الظلم على نفسه وعلى الناس، فما بالُ الأمم تتكالب علينا، بل ما بالُ شعوبنا راضخةٌ خانعةٌ.

أجاب وحيد: إنه مرضُ الوَهَن.

قال ربيع: لكنّ الثورات العربية الكبرى الآن تُبشّر بالتعافي من هذا المرض، وتبشر بعودة الشعوب إلى مجدها التليد.

قال وحيد: إن شاء الله ونسأل الله أن يحفظ هذه الثورات من المندسّين والمتآمرين حتى تنجح وتصل بنا إلى دولةٍ واحدة وعملةٍ واحدة.

قال ربيع: والأجمل مما ذكرت فيما لو تحقق هذا الأمر اختفاء الحدود، فكيف بنا لو حدث هذا وذهبنا في سيارتك هذه مثلا إلى مصر أو سوريا أو إلى مكة حاجّين؟

قال وحيد: والله تلك نعمةٌ كبرى.

قال ربيع: تخيّل هذه الدولة الكبرى خاصة عندما لا تحتاج إلى الدول الأخرى، فالتكامل الاقتصادي بينها يُغنيها عن غيرها ويجعلها في مقدمة الأمم يبدو هذا الآن خيالاً لكنه سيصبح حقيقة، وليس ذلك ببعيد.

فاجأ وحيدٌ ربيعاً بتوقفه أمام الصراف الآلي، فدائماً لا يشعران بالسفر بسبب حديثهما في السيارة، فاستلما معاشهما وعادا مسرورَيْنِ، لكنّ ربيعاً لاحظ أثناء عودتهما بعض الضيق على وجه صديقه فسأله: أراك لسْتَ على ما يُرام هذه المرّة فما بالك؟

قال وحيد: أنت يا صديقي من أولي النهى؛ فمن الناسِ من يفرّقُ ومنهم من يجمع، ووالله إني لا أطيق هؤلاء الأفاعي الذين يفرّقون بين الأهل وإني لا أكره أحداً من المسلمين، ولكنّي لا أطيق البخلاء ولا الحسَدّةَ الذينَ لا يتركون الناس في حالهم.

قال ربيع: أشعرُ أنك تقصد النساء خاصّة لكن سبب هذا هو الجهل؛ فالجاهل عدوّ نفسه.

قال وحيد: صدقت فالعلم نور في الدنيا والآخرة.

وقبل هذا الحديث اشترى ربيع بعض المواد التموينية لبيته- من بيت لحم التي عرّجا عليها- عدا اللحوم، فإذا اكتشفها الجنود على حواجز التفتيش فلن يسمحوا للسيارة بالعبور، وحين وصلا قريتهما أصرّ وحيدٌ على توصيله حتى باب بيته، فشكره وقال له: تفضّل لشرب الشاي أو القهوة.

لكنّ وحيداً أبى فأعذره ربيعٌ لعلمه بانشغال صديقه. ليلتقيا بعد شهر مع حديثٍ آخر.

بعد هذا المشوار وصلاة العشاء ومطالعته بعض الكتبِ الهادفةِ يُحِسُّ ربيعٌ بجمال الليل، فأجمل ما في الليل- غيرَ ثوبهِ الأسودَ- صمتهُ الأبيضَ الفصيحَ الناصعَ لأننا نرى أنفسنا بجلاء.

ثمّ يطلّ برأسه من نافذة التلفاز على العالم عسى أن يرى شيئاً قد حدثَ يُثير الشوقَ ويقتلُ الملل.

ودوماً يتنقلُ من نافذة إلى أخرى ويتعجب كيف أصبحَ العالمُ قريةً صغيرة بعد ثورة الاتصالات الهائلة والتي لم تزل في مرحلة الحبو أمام العِلمِ الذي جاء بالعرش من اليمن إلى بيت المقدس في لمح البصر.

لكن أيام الصّبا ولّما كانت أجهزة التلفاز باللونين الأسود والأبيض فقط ولا يوجد أكثر من محطتين أو ثلاثة وكنا نتابع مسلسلاً واحد كنا نستمتع أكثر، ولا يتشتتُ فكرنا كهذه الأيام فالمحطات بالمئات، فرحم الله أيام مسلسل مقالب غوّار، ودليلة والزيبق، وسليمان الحلبي، وشجرة اللبلاب وغيرها من المسلسلات الجميلة البريئة الهادفة.

أثناء سرحان ربيع التفت نحو زوجته وهي تدعوه لإغلاق الجهاز كي يصحو مبكرا للصلاة وعمله؛ فأجابها مبتسماً: اطمئني فغداً عطلة بسبب الإضراب حتى يستجيبوا لنا ويعطوننا علاوة القدس وغلاء المعيشة.

قالت زوجته: حسناً إذا سنزور غداً إن شاء الله بيت أهلي.

أجاب ربيع: إن شاء الله.

وكالعادة يظلّ ربيعٌ يتقلبُ يمنةً ويسْرةً لمدة نصف ساعة على الأقل بين تأمل وتفكّر قبل المنام في الدنيا وما تحوي وبين تساؤلاتٍ لا تنتهي عن أسرار الكون وما بعده شاعراً بشيء من المتعة والفضول ليغفو أثناء ذلك محاولا بعد أن يصحو التذكر متى غفا بالضبط وعند أي فكرة لكن دون جدوى.

توضأ وصلى وذكرَ وشكرَ، ولحسن الحظ تمر فتراتٍ من الهدوء النفسي النسبيّ بلا خبرٍ يعكر تناول طعام الفطور، وكان طعام الفطور هذا الصباح أجمل وخاصة في أواخر آذار فنبتة اللفيتة والحويرة والزعتر وزيت الزيتون وخبز الفرن الساخن والبيض البلدي كل هذه الأشياء تحيّر ربيع بأيها يبدأ.

وبعد أن ينتهي وينجز بعض أعمال التصليح في البيت ويصلي الضحى يعرج على أبيه ليسأل عن أحواله وأحوال إخوته وعملهم، وليستمع إلى قصصه المشوقة وذكريات أيامه خلف الشمس، وأحياناً يحمل معه صحناً من طعام أعدّه بنفسه ليعود الصّحنُ مليئاً في اليوم التالي على أبعد حدّ.

سأل ربيع أباه: ما هي أخبار أخي هل سيتزوج هذه السنة؟

قال أبو ربيع: إن شاء الله، وأرجو أن يبقى أخوك في عمله ولا ينتقل إلى عمل آخر حتى يتمّ العرسُ إن شاء الله في هذا الصيف ويساعد أخويه بعد زواجه.

قال ربيع: إن شاء الله يا أبي، والله لن يضيعنا، فكما حفظنا وأنت في السجن ونحن أقلّ عدداً سيحفظنا في كلّ وقت وهو خير الرازقين.

قال أبو ربيع: هل تحمل سلاماتٍ لي من أصدقائي في المسجد؟

أجاب ربيعٌ واضعاً كفّه على جبهته: آه، لقد ذكّرتني، فقد أرسل لك ثلاثةٌ منهم سلاماتهم الحارة، منهم جارنا الخليلي الذي رحل من القرية بسبب البناءِ بعد حصوله على رخصة بشقّ الأنفس، ومنهم من لا يعلمُ أنك لم تعد قادراً على المشي إلى المسجد فسألني عن تغيّبك فأخبرته، فدعا لك بالشفاء والسّلامة.

قال أبو ربيع متنهداً: والله يا بنيّ مذ رآني ذاك الشخص الذي قال لي وأنا ذاهبٌ إلى المسجد بخطوات ثابتةٍ أنّني أمشي كابن العشرين- ولم يذكر الله ولم يقل ما شاء الله- فأنا كما ترى أصبحت أمشي بصعوبة ناهيكَ عن باقي الأمراض، ثمّ إن للشيخوخة دورها.

قال ربيع: لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، يعني هل يتعب الناس إذا ذكروا الله وصلوا على النبي عليه الصلاة والسلام، فالحمد لله أنك يا أبي مُداومٌ على تلاوة القرآن والذكر والأدعية، وإلا لكانت الإصابة أعظم، فالحمد لله على لطفه.

وأضاف ربيعٌ: بما أنّ الشيء بالشيء يُذكر، فقد قال لي صديق أنه يعمل في شركة وعنده مروحة قديمة، وتُخرجُ صوتاً مُزعجاً، وفي كل المكاتب

التي في تلك الشّركة مراوحُ جديدة، فحين يدخلُ زملاؤه عليه يقولون له صحتين يا عم على المروحة صحتين، فما تلبثُ أن تتعطّل تلك المروحة، ويستحي أن يقول لهم قولوا ما شاء الله يا جماعة عندكم أنتم- ما شاء الله- أفضل منها، فلا يقول، ثم يقول في نفسه ذاك الشخص الذي ضُربَت مروحتهُ عيناً: الله أعلم ما ضُرِبتْ مروحتي عيناً إلا لذنبٍ مني.

قال أبو ربيع: الحمد لله كلّ شيء بأمره وإرادته.

ثم استأذن ربيعٌ أباه ليذهب إلى البقالة لشراء بعض الأغراض لزيارة أنسبائه ونادى من الطريق على زوجته مستعجلاً كعادته.

سار ربيع وزوجته وبعض أبنائهما في طرقات القرية الجبلية الملتوية حتى وصلوا بعد أقل من ربع ساعة فجلسوا عند حماةِ ربيع بعدما استقبِلوا بحفاوة، وأول ما سألوا عن أخبار الأخ الأصغر لزوجة ربيع وهل صدر بحقه الحكم؛ فلا تكاد تدخل بيت إلا وبه سجين أو شهيد أو جريح أو مبعد.

فأجابت الحماة: أدعو له بأن يلطف الله به وأن يكون الحكم مخففاً؛ فلا يردّ القضاء إلا الدعاء.

فدعا ربيع ربه أن يلطف به وبجميع الأسرى ليس في فلسطين وحدها بل في كل هذا العالم والذي لا يكاد المسلم يجد ملجأ يلتجئ به من الظلم.

حضرت المائدة لطعام الغداء أثناء تداولهم أطراف الحديث والسؤال عن الوضع المعيشي وارتفاع الأسعار الجنونيّ وهل حدثت مشكلة هذا الأسبوع القرية فقال أحد الأطفال: الحمد لله مرّ أسبوعان دون مشاكل.

فقالت حماة ربيع: اللهمّ اصرف عن هذه القرية شرّ أولاد الحرام.

فقال الجميع: آمين

وضع الطعام ولم يأكل ربيعٌ فلم يكن يشعر بالجوع، فقال أخو زوجته: والله لتأكلنّ فللشبعان أربعين لقمة ؛ فحوقل ربيع مبتسماً وأكل مجاملاً، فعادة أهل القرية الكرم، فحتى بعد خُطب الجمعة وتحسين وضع مسجد القرية حتى أصبح من أجمل مساجد القرى المحيطة بنا؛ فقد صار يأتي أناسٌ من القرى المجاورة وحتى من قضاء بيت لحم لجمع التبرعات من أبناء قريتنا وخاصةً في شهر الصيام والقيام، لكنّ المُثيرَ للعجبِ أنّه حين كان الناسُ في العصر الذهبي لدولتنا يصلّون على الحصى كانوا سادةَ العالم.

ثم سأل ربيعاً بعدما رأى الأطفال يلعبون من حولهم: أتذكر أيام البيانات في الانتفاضة الأولى حين ولدت تلك الطفلة- التي تلهو أمامهم- وكان رقم البيان ست وثلاثون فأطلقت على هذه الطفلة بيان رقم ستة وثلاثون، وكان اسم الطفلة بيان.

فهزّ ربيع رأسه متعجباً وقائلاً: أهذه هي ما شاء الله ما أسرع الزمان، وبعدها كنا نعدُّ أيام العدوان على غزة حين كانت محطة الجزيرة تضع في الزاوية العليا للشاشة عدد أيام العدوان وكنا نقول: نحن نذبح والعرب يعدّون.

ثم ما لبث أن قال ربيع: يا جماعة لا يملّ الحديث معكم، وهو ذو شجون فاسمحوا لنا بالانصراف وخاصةً أنني سأذهب غداً إن شاء الله مع الطلاب إلى رحلةٍ للقرى المهجرة.

فقال أخو زوجته: ليتني معكم، وأظنك لن تعود لزيارتنا إلا في عيد الأضحى.

قال ربيع باسماً: متى شعرنا بطعم الأعياد كباقي أمم الأرض؟ وعلى كل حال فقد اقترب واقتربت معه المصاريف، فلا بدّ أن أبدأ من الآن بتوفير المال خاصّة وأن النفقة في عيد الأضحى ضعفا عيد الفطر بسبب الأضحية التي لا أستطيع مقاومةَ أجرها العظيم.

وودعهم وعائلته وانصرفوا شاكرين لهم حسن الضيافة والكرم.

استيقظ ربيعٌ نشطاً متفائلاً صبيحة اليوم التالي وكان الخامسَ عشرَ من آذار وقد حمل معه طعاماً خفيفاً للرحلة المدرسية للقُرى المهجّرة حول القدس ولحسن الحظ كانت السماء صافية..

كالعادة تأتي الحافلة في الثامنة صباحا ويصطف الأولاد بإشراف المعلمين والمعلمات فيصعدون للحافلة بفرح وسرور وقد اشتروا ما يحلو لهم من البقالة غير الأكل الذي أعدته لهم أمهاتهم للتزود للرحلة.

كان يوماً مشمساً مناسباً للرحلات وخاصة حين تكون الرحلة في منتصف آذار حيث تفتحُ أزهار اللوز وتظللنا السماء الزرقاء وكأنما نسيرُ على بساطٍ أخضرَ باستحياء كونَ الثوب الأخضر جديداً.

بدأ الأولاد بقراءة دعاء السفر بتوجيه المشرف وشرع بإعطائنا لمحة تاريخية عن أرض الأنبياء عروس الشام منذ العام 1917 وحتى يومنا هذا.

وانطلاقا من قرية صور باهر مررنا بأول قرية مهجّرة وهي المالحة ثم بقرية لفتا وهي أكبر القرى المهجرة مساحة وتصل حدود أراضيها إلى شارع صلاح الدين في القدس والتلة الفرنسية ولا تزال فيها عائلات من قرية لفتا مثل عائلة دار أبي ليل وأبي طاعة.

وكان اللفتاويون آنذاك من أغنياء الناس نظراً لمساحة أراضيهم الزراعية، ثم مررنا بقرية كالونيا ثم القسطل ومعناها بالعربية (القلعة) وتقع على قمة الجبل وحولها خندق صخري بعمق 170سم، حفره المجاهدون آنذاك، وقد كتب على القلعة بالعبرية (بيت المختار)، ويقطن الآن في القسطل يهود اليمن، وغادرناها الساعة العاشرة.

وبعد القسطل مررنا بقرية صوبا وفيها مدينة ألعاب لم نعرّج عليها وهي أكبر القرى المهجرة من حيث عدد السكان، وقد أنشأ سكانها بعدما هجروا قريتين قريبتين منها وهما بيت نقوبا وعين رافة ومن قرية صوبا رأينا قرية أبو غوش وهي الوحيدة الباقية حتى اليوم وفيها سكان عرب.

وبالنسبة لتسمية قرية عين رافة بهذا الاسم هو أنه مرّ راهبٌ بفلاح من هذه القرية وطلب منه ماءً فلم يكن مع ذلك الفلاح إلا قدرا يسيراً من الماء فأعطاه للراهب، فسأله الراهب: هل هذا كل الماء الذي معك؟ فأجابه: نعم، فلما رأى الراهب أن الفلاح قد آثره وأعطاه كل الماء الذي لديه قال له: سأدلك على عين ماء مهجورة وقد فعل، وسميت هذه القرية نسبة لتلك الحادثة باسم الراهب رافا.

ثم توجهنا إلى قرية صَطاف تناولنا طعام الإفطار على مشارفها، وفيها عين ماء، ومقابلها ناحية الشرق يبدو لنا مستشفى (هداسا عين كارم) وكأنه قصرٌ أبيض وسط مروجٍ خضراءَ عرجتها الجبال.

ثم مررنا بعين كارم وهي من القرى المهجرة غير المُدمرة وما زال البناء عربياً، لكنّ السكان يهود. وعين كارم مكانٌ مقدسٌ بالنسبة للمسيحيين لأنه أيام هيرودوس حين أمر بقتل الأطفال هربت سيدتنا مريم عليها السلام بابنها عيسى عليه السلام إلى عين كارم وكان طفلاً، وعاش طفولته في هذه القرية قبلما ترحل به إلى الناصرة.

ويقال إنه يوجد مغارة اسمها مغارة الجماجم حيث كانت مملوءة بجماجم الأطفال الذين أمر هيردوس بقتلهم.

وفي طريق العودة مررنا بقرية الوجلة التي احتلت العام 1948، وعرجنا على جبل به مبنى تذكاري أقامه اليهود تخليداً لذكرى الصداقة بين الشعب الأمريكي والإسرائيلي وهو مبنى شبه هرمي دائري مكوّن من 53 عموداً بعدد الولايات المتحدة الأمريكية.

وهناك تغدينا ورق دوالي وشربنا العصير وكانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف قبل العصر.

بعد انتهاء الرحلة حدّثَ ربيعٌ نفسه في الحافلة على ترانيم دعاء العودة بصمتِ المُعْتَبِر:

كثيرا ما يذهب الناس للرحلات ودوماً تبدو الرحلات قصيرة مهما طالت ثم نعود إلى بيوتنا، وكذلك الحياة رحلةٌ قصيرة ثم نعود إلى الدار الآخرة... فلنتزوّد لها.

ثمّ بعد تلك الرحلةِ شَعَرَ ربيعٌ بِراحَةٍ وشوقٍ إلى الكتابة، وخاصّة حين تزوّجَ ابنه الكبير الذي أنهى دراسته في الأردن وحصل على شهادة البكالوريوس من إحدى جامعات الأردن مكثَ هناك أربعَ سنواتٍ، فصار ربيعٌ يقارن بين نفسه وابنه وبين حالتهما ؛ فكتبَ ربيعٌ خاطرةً حين كان يزورُ أصدقاءهُ الطّلاب الذين كانوا من الضّفة الغربيّة في غرفِهِمُ

المُسْتأجَرَة كتبَ خاطرةً بعنوان: رسوماتٌ على جدران غرفة قديمة يقول فيها:

غرفةٌ قديمةٌ زينتْ جدرانها رسوماتٌ وصورٌ مختلفة... في هذه الغرفة طلبةٌ جمعتهم الغربة، وألفت بين قلوبهم...يتسامرون كلّ ليلة حتى ساعة الصفر، وذلك بعد مراجعتهم دروسهم... هذا يحكي مأساة قريته حين شرّد أهلها، ثم ينتقل إلى الحديث عن بساطة القرى بعد ذلك، وكيف أنها كانت خالية من التلفاز، فكان الأقرباء يجتمعون في بيت أول رجل جلب التلفاز إلى القرية وكانوا وقتئذ يشاهدون مسلسل (صحّ النوم)، ثم بدأ التلفازُ بالانتشار رويداً رويداً.

وأحد الأصدقاء الثلاثة يحكي قصص جدّته عن (الغولة) وأنه وإخوته كانوا يجتمعون حول جدّتهم بشكل دائري بعد العشاء يسمعون القصة بلهفة وشوق، فمنهم من يستمع لآخر القصّة، ومنهم من يغلبه النّعاس. والصّديق الثالث يروي قصّة سلامة الحسود.

يظلّ الأصدقاء يتسامرون حتى يطرحهم سلطان النوم ؛ فإذا هم حين يقظتهم قد وجدوا أنفسهم ملتحفين سقف الغرفة، فيسارعون إلى عمل فطورهم الروتينيّ من البندورة المقلية مع البيض والفلفل الحار فإبريق الشاي بالنعناع تارة، والميرمية تارة أخرى، ثم الانطلاق إلى محطة الحافلات لتنقلهم إلى جامعاتهم.

ورغم هذه الأشياء الجميلة إلا أنّ الحنين بين الفينة والأخرى يعتصر قلوبهم، وهل غير الحنين للأسيرة فلسطين.

وبعد أن دار دولاب الزمان الصامت حتى ابتعد عن غرفتهم مسافة ثلاثة عقود كان في غرفة مشابهة لغرفتهم، ومكان مشابه لمكانهم ثلاثة طلاب هم أبناؤهم لكن على جدران غرفتهم رسومات وصور مختلفة لأطفال ممزّقين ورسمة لجدارٍ قد فتح الأطفال به فتحةً لِتدْخُلَ منها الشمس.

هذه هي الخاطرة التي كانت تَصِفُ بعضَ حالِ الطلاب وقتذاك، وتَصِفُ حالَ أبنائهم بعد ما يقارب الثلاثين عاماً، والفرق بين الحالتين يُوضّحُهُ الفرقُ بين الرّسْمَتين.

الفصل العاشر

رمضان

البهجةُ تملأُ الأرض والسّماء حين يعود إلينا شهر الوحدة الكبيرة؛ بالرغم من محاولة البعض كل عامٍ التنغيص علينا في هذا الشهر بدعوى اختلاف مطالع القمر إلا أن هذا الأمر لا يؤثر كثيراً على الأمر الواقع والذي يعدّ أيامهُ الأعداءُ عدّاً فهو أثقل شهر عليهم وعلى شياطينهم المقيدة.

بينما يكون كلهُ عيداً للمسلمين صغاراً وكباراً، وهو محطةٌ سنوية لشحنِ الهِمَمِ وتقوية الجسد والنفس بالرياضة الروحانيّة والصبر وبهجةً للصغار، فترى الأطفال يزينون نوافذ ومداخل بيوتهم بالحبال الكهربائية الملونة والمتقطعة الإنارة وبأشكال الهلال وعبارات الترحيب والتهليل، والعجب في هذا الشهر أنه حتى الذين لا يصلّون يزينون بيوتهم ويصلون في هذا الشهر، فما أجمل اجتماع الأسرة وقت السّحور وبعد آذان المغرب على طعامٍ واحد يتبعه تناول الزائر المرافق لهذا الشهر وهو حلوى القطايف والتي يحبذها البعض بالجبنة الحلوة والبعض الآخر بالجوْزِ

حتى في داخل الأسرة الواحدةِ يتمّ عملُ القطايف بمشاركة هذين الشيئَين.

فما أسرع ذهاب هذا الشهر خاصة بعد انقضاءِ أول يوم منه فكأنهُ سُبْحةٌ قُطِعتْ وتساقطت حباتها الثلاثون بسرعة، وسببُ سرعته انشغال المرء بالعبادة والتسابق في قراءة القرآن الكريم والذكر والاستغفار وحضور مجالس العلم والنوم مبكراً من أجل اصطيادِ عصفوريِّ السّحور والصلاة في المسجد وغير ذلك من أجور عظيمة من صدقات وزكاواتٍ وبركات.

اتصل سميرٌ ليلةَ أول جمعةٍ في رمضان بربيعٍ ليذهب معه للصلاة في المسجد الأقصى المبارك، ومن عادتهما أن يذهبا مشياً ولو مرة واحدةً في هذا الشهر المبارك طلباً للأجر والثواب ، فسألهُ ربيعٌ: هل حدّدَ اليهود الأعمار؟

قال سمير: لا تخف فنحن فوق الأربعين ومسموح لنا بدخول الأقصى حتى ولو كنّا ملتَحين.

فقال ربيع سنذهب مشياً فانتظرني الساعة السابعة صباحاً.

قال سمير: توكلنا على الله إن شاء الله ننطلق السابعة صباحاً.

وبعد صلاة الفجر في مسجد القرية والمكوث حتى طلوع الشمس عادا إلى بيتهما وجدّدا وضوءهما ونظرا في ساعتهما وكانت السابعة تماماً-

ليعرفا كم سيستغرق الوقت للوصول إلى المسجد الأقصى مشياً- وحملا بعضهما في الطريق بالحديث، ولم يشعرا بالتعب ولا بطول الطريق؛ بل شعرا بالسعادة والنشوة، وحين وصلاة إلى ما يسمى بركة سليمان أو جورة العنّاب قبل باب الخليل بقليل نظرا في الساعة فكانت تمامَ الثامنة، ولّما دخلا في ساحة المسجد الأقصى كانت الساعة تشير إلى الثامنة والربع، فكانت الطريق ساعةً وربع.

قال ربيع: دعنا ندخل في المسجد قبل أن يتوافد المصلون فلا يبقى لنا مكان.

قال سمير: تمهل قليلاً حتى نستريح تحت هذه الشمس الهادئة.

قال ربيع: ألا تشعر أننا كلما دخلنا ساحة المسجد الأقصى نشعر بشيءٍ من الراحة النفسية والطمأنينة الروحانية؟

قال سمير: بلى، فالأقصى كأنه قطعةٌ من الجنة.

قال ربيع: انظر حولك لعلك ترى شيخاً أريد أن أسأله عن رؤيا رأيتها وأنا ابن خمسة عشر عاماً وما زلتُ أذكرها جيداً حتى الساعة، ولا تسألني لأنني أعرف أنك ستسأل فاللهمّ اجعلها خيراً، فقد كنتُ في الرؤيا في بئرٍ ليست عميقة وبها كومٌ من التراب وأنا واقفٌ على ذاك التراب ولكنّي لا أستطيع الخروج وليس بيني وبين الخروج إلا متراً أو

متراً ونصف، وفي نفسي أنني أستطيع الخروج بالرغم من الحيطان الملساء للبئر وعدم وصول يديّ لحافة البئر ورؤيتي للفضاء خارج تلك البئر.

فقال سمير: أكثر من يستطيع تفسير الرؤيا صاحبها.

قال ربيع: ربما والله أعلم أنها لا تخصّني وحدي؛ بل كأنها تعني كلّ شعبنا، وسنخرج بإذن الله من هذه البئر.

أجاب سمير: الخروجُ قريب.

ثم دخلا قبل وصول الأمواج البشرية ليبدءا في قراءة القرآن الكريم. ثم أذن المؤذن لصلاة الظهر، ولما التفت الصديقان خلفهما لم يريا إلا بشراً قد غطوا الأرض وتساءلا: من أين أتى كل هؤلاء الناس.

(إنها أرض مباركة) قالا ذلك معاً وسكتا ليبدأ الإمام في خطبته النارية.

انقضى أكثر من ساعة بعد الصلاة ولم يذهب سوى نصف المصلين، فقال ربيع: فلنبقَ حتى صلاة العصر ليكون خروجنا أسهل وثوابنا أكبر.

قال سمير: نعم الرأي.

وابتعدا نحو سطح المصلى المرواني وسأل ربيعٌ صديقه: ما لهؤلاء الناس لا يسمعون صرخات المسجد الأقصى ولا يتعظون؟ عشرات السنوات والخطباء يلقون المواعظ والاستنجاد ولا يفزع لنا أحد ولا ينقذنا قريب ولا بعيد، فما الخطب يا ترى؟

أجاب سمير: لعلّ الموعد الرباني للفرج لم يحن بعد، ولما يأذن الله بالنصر يأتي النصر من حيث لا نتوقع وبأسرع مما نتوقع.

الفصل الحادي عشر

الثورات العربية الكبرى

قيلَ إن الثّورة الأدبية قبل الثورة السياسيّة، والثورة الروحية قبل الثورة الاجتماعية.

تذكّر ربيعٌ مرةً المقولةَ التي أعجبته وقالها مرّة لصديقه: إنّ تعاون الناس يفقدُ الأنظمة قوّتها، وتذكّر هذه المقولة لمّا حدثت ثورة تونس الخضراء وكتب شعراً حرّاً وأهداهُ إلى تونس فرَحَاً بثورة تونس واستبشاراً، فكيف لو كان هؤلاء المتعاونون على خلُقٍ ودين؟

وقد صرّح أحد قادة الاحتلال بأنّ ثورة تونس نذيرُ شؤمٍ على إسرائيل.

فرح المستضعفون في الأرض بثورة التوانسة الأحرار واعتبروها مقدمة لخيرٍ كثير.

فكم شاهدَ هذا الشعب على التلفازِ ما يعصرُ القلوبَ ألماً على مدى سنينَ طويلة مريرة؛ بل منذ نعومة أظفارنا وأظفار آبائنا، لكنّ اللهَ العدلَ أرانا ما شفى صدورنا، فكأن حالنا كمن كان أشقى أهل الأرض وغمِسَ

غمسةً في النعيم فسُئلَ: هل رأيتَ بؤساً قط؟ فأجاب: لا والله يا ربّ ما رأيتُ بؤساً قط.

فكيف يا ترى تكون الفرحةُ لمّا تنجلي عن أرضنا هذه السحابة السوداء العقيمة.

زلزالُ تونس كان يقارب تسع درجات من إحدى درجات زلازل اليابان على مقياس ريختر وله ارتدادات، إلا أنّ زلزال تونس الثورة ذو ارتدادٍ أبعد وأعمقَ حيث كانت بؤرته شابٌ اسمه محمد بو عزيزي رفض أن يكون بجناحٍ واحد لمّا أشعل في جسده النار فقد أشعلها في نفوس التوانسةِ والعالم العربي كله وكأنّ القدر جعله قرباناً، ولا أحد يعلم ما تقول الرياح بعد هذا، فالعالم بأسره يسير نحو التغيير الذي كان هاجعاً سنينَ طويلة في قلب المارد الأخضر، وإنّ قدرَ الله هو الذي يحرّكُ الحدث.

ثم ازداد النّاس طرباً حين ألقتْ ريحُ الثورةِ شعلةً من تونس إلى مصر الكنانة فاليمن فليبيا. ولا يمكن التفريق بين فرعون مصر القديمة وفرعون مصر اليوم وقرنائه في سوريا وليبيا واليمن وغيرها من دول ظالمةٍ.

عندما تفتّحت أزهار اللوز باستحياء في قريتنا في شهر آذار من العام 2012 المبارك والأكثر خضرة، بسبب شتاء العامِ 2011 الأكثر حرارة وسخونة- ارتوت نفوسنا من ماء الرحمة المنهمرة كما ارتوت أرضنا حتى

كادت تقول كفى- وربما هذه الأمطار إشارة سماوية على القبول بعد أن انتقلت الأمم من مرحلة الصمتِ إلى مرحلة الكلام ثمّ الفعل، فلم تحبس السّماء مطرها كأنها تقول: استمرّوا فأستمرّ .

وقد أفْضَتْ هذه الثورات البهيجة الأنسَ على الجلسات الليلية لربيع وسمير وأصدقائهما.

وقد حمل ربيعٌ ورقة كتب عليها شعراً حرّاً وأهداه إلى تونس الخضراءَ وبدأ يقرأ ليرى رأي صديقه فيها:

إهداء إلى تونس الناهضة الخضراء

خامُ الثورة

لي جيبتانِ من نسيجِ الألمِ

أسكَنتُ في التي على سطح فؤادي وَرَقي

أغمدتُ في التي على ناصيتي سرائرَ من قلمي

تحتَ النجوم الماضيةْ

أُنادِي نخوة العرَبْ ؛ لكنها قد قتلتْ

أنْادِي تحتَ صخرةٍ قد ثقبتْ

يا ريحَنا

يا شمسَنا التي تخدّرتْ أزيلي العقبةْ

هيا وَفكي رَقبةْ

تسلّلي لكهفنا... هذا الذي في قدْسنا

حيثُ ظلامٌ دامسٌ

وحيثُ جورٌ وقساةٌ ظلَمَهْ

* * *

وكلما حرّكَ مِحدافٌ حَدَثْ

على جدارِ قلمي حطَّ وَخطْ... ثم رَحلْ

فكان رسماً من أملْ

يراهُ دوماً إخوةٌ لنا عبثْ

لكنْ قريباً تعصفُ الأرياحُ بالفراعنةْ

فابنُ عليّْ... اسمٌ مضى... أضحى دَنيّْ

كأنهُ... ظلْ ما مَكثْ

إلهنا... احفظ لنا تونسنا

ابقِ لنا ثوْرتها منقوشةً في الذّاكرةْ

تؤْنِسنا

فخامُ ثورةِ العربْ

وغيرِهم...

من أرضنا.. من بحرنا

من دمنا.. من سجننا

من فقهنا..

ومن غضبْ

فلا عَجبْ

***

بعد أن سمع سمير القصيدة أبدى إعجابه بها، وذهبا في هذه الليلة المزدوجة الربيع- حيث الربيع العربي ما زال يُثمر جنباً إلى جنب مع ربيع الأرض- عند أبي أحمد قريبهما والذي رحبّ بهما بفرح وسرور، وكانت الجلسة خارج البيت في الساحة قريبة من أضواء أعمدة الطرقات المنيرة والتي بدت تزاحم ضياء البدر وضياء المتسامرين.

بعد الترحاب وتناول القهوة الساخنة قال أبو أحمد: الله يُستر الليلة فلا يأتي الصريخ من أحد الأولاد ويقول: افزعوا أفزعوا حدثت مشكلة بين عائلتين.

قال سمير: فأل الله ولا فألك يا رجل.

فقال ربيع: أو نسمع سمّاعة المسجد تقرقع استعداداً للإعلان عن وفاة أحد من القرية، فقد كانت هذه السنة الأكثر موتاً في قريتنا، وكأنّ أعراس الفرح والموت توأمان كالليل والنهار والموت والحياة.

قال أبو أحمد: يا جماعة تحدثوا في موضوع آخر فقد مللنا هذه الأمور؛ فهل عند أحد منكم طرفةً أو أحجية؟

فردّ ربيعٌ بسرعة وسأل: اسمعوا ونشّطوا أذهانكم ليست صعبة، لو فرضنا أنّ قطّاً وقع في بئر وفي هذه البئر سُلمٌ له ثلاثون درجة، فيصعد القط كل دقيقة ثلاث درجاتٍ ويرجع اثنتين ففي كم دقيقة يكون القط قد خرج من هذه البئر؟

فأجاب أحد الأولاد: في ثلاثين دقيقة.

قال ربيع: خطأ، ثم ماذا تفعل هنا اذهب ونم.

قال سمير وأبو أحمد ينظر مبتسماً: في سبعة وعشرين دقيقة لأنه حين يقفز في الدقيقة السابعة والعشرين ثلاث درجات- لأنه يقفز كل دقيقة درجة- يكون قد خرج من البئر ولا يرجع درجتين.

قال ربيع: أحسنت، ودعني أسأل الأولاد فإن أجابوا نبقِهم حولنا، وإلا سنصرفهم. فقال الأولاد بسرعة: موافقون.

سأل ربيع الولد الأول: ماذا قال حسني مبارك؟

أجاب الولد: لم أكنْ أنتوي.

قال ربيع: جيد، وأنت يا ذا القبعة: ماذا قال ابن علي؟ فأجاب ذو القبعة: قال ابن علي: فهمتكم.

قال ربيع: أحسنت. ثم سأل الولد الثالث: ماذا قال القذافي؟

أجاب الولد الثالث: قال القذافي الكذّاب: لو عندي منصب لرميته في وجوهكم.

ضحك الحاضرون ثم سألوه: وماذا قال علي عبد الله؟ فأجاب: لن أترشّح.

فقال ربيع: السؤال الأخير يا جماعة الخير للصغار والكبار: ماذا قال بشّار؟ أجاب أبو أحمد: قال بشار ولا بشرّه الله بالخير: ظروفٌ أخّرتْ الإصلاح، ونحن لسنا مصر ولا ليبيا ولا اليمن نحن نختلف وشبّيحتنا يحرقون الأخضر واليابس، ولا يرقبون في مؤمنٍ إلاً ولا ذمّة. ولمناسبة ذكر اسم بشار فهو إن شاء الله من العشرة المبشرين بجدّة عند أخيه زين الخائنين كما سمعت ذلك من أحد المعارضين في لندن والذي توقع لعلي عبد الله أن يكون من العشرة المبشرين بجدّة.

ثمّ عقّب سمير على هذه الأسئلة والأجوبة قائلاً: كلّهم كذّابون، وكلهم إلى زوال، والظلمُ لا يدوم.

ثم ما لبثوا أن تداولوا النّكات والطرائف ولا تخلو كلّ جلسة منها، لكن أحياناً ما يشاغبُ الأطفالُ المحبون للفضول فيزعجون الكبار فيصرفهم أحد السامرين فيُعاندونَ ويُغيظونَ خاصة ربيع الذي يكره المعاندة كرهاً شديداً ربما لأنها كانت سبباً في انفصال والديه.

قال أبو أحمد بعد أن أجاب الأولاد عن الأسئلة مُخاطباً ربيعاً: سوف نبقِي الأولاد لأنهم أجابوا على الأسئلة وهدؤوا وسيصبحون إن شاء الله رجالاً، واشرب قهوتك فقد بردت.

ارتشف ربيع رشفةً من قهوته وهو يقول: هذا الفنجان الثاني الذي أشربه ونظر إلى سمير وسأله: ما لك صامتاً.

أجاب سمير: سرحت في هؤلاء الشباب العاطلين عن العمل وما هو مصيرهم في المستقبل إن بقوا على هذه الحالة، فاليوم حيث توجهت لتسأل عن العمل تجد أن المرأة سبقتك وأخذت الوظيفة منك، حتى تكاد النساء يستولين على السيارات بعد أن كنّ قبل سنين قريبة يطالبن بالمساواة، وأرى أن نخرج نحن معاشر الرجال اليوم للمطالبة بالمساواة.

تبسّم الأصدقاء وقال أبو أحمد: ربما يكون بعض الفائدة من عملهن في زمن الغلاء الفاحش هذا.

قال ربيع: إن كان العمل في نطاق العلم والطب فلا بأس، واستدرك قائلاً: لكنّ زوجات المعتقلين والشهداء والأرامل والفقيرات يجدن العمل أفضل من سؤالِ الناس والمذلة.

قال سمير: دعونا نتكلم في الموضوع الأجمل: الربيع العربي.

قال ربيع: قبل الخوض في الربيع العربي، ما أخبار عملك يا أبا أحمد؟

فأجاب: الحالُ على ما هي عليه كباقي أغلبية الناس، شهر نعمل وشهرينِ نتوقف، فالعمل في مجال البناء في القرية نادرٌ فهي كما تعلم قرية وليست مدينة، ناهيك عن أنها ليست كُوُرَشِ اليهود، وحالكم أنتم في مؤسسات ومدارس السلطة تشبه حالنا إذا قارنّا الأجرة، فمعاشكم

نصف معاش موظفي البلدية التابعة للمعارف الإسرائيلية، ويساوي معاشنا باعتبار أننا أقل دواماً منكم.

قال ربيع: صدقت، والذي معاشه قليل من المدرسين وتعمل زوجته يصبح معاشه مقبولاً، ولكن على حساب عمل الزوجة، فكأننا كلنا بجناح واحد سواءً في مجال التعليم أو العمل في باقي المرافق الاقتصادية وغيرها.

قال أبو أحمد: العزاء الوحيد لنا أنه حين يفكّرُ الإنسان ويتأمل في هذه الحياة ويتخيل أنه رجلٌ غنيٌّ ويملك الزوجات والسيارات والدور والشركات والصحة الجيدة وهو على دينٍ وخلُق وانه سيعيشُ مائةَ عامٍ وبعدها سيموت، فإن كلّ ذلك لا طعم له مع هذا الموت.

فأجاب ربيع: صدقت ووالله إنّ في هذا لعبرة.

قال سمير: ليت الناس يتعظون، وعلى كلّ حال دعونا نعود لربيعنا العربي المبين.

قال أبو أحمد: ليتني أستطيع تخيّل الوضع كيف سيكون بعد سنتين أو ثلاثة من هذا الربيع، وهل سيتركنا الأعداء وشأننا أم سيظلون يمكرون في الخفاء؟ وحتى كيف سمحوا لهذه الثورات أن تصل إلى ما وصلت إليه؟

أجاب ربيع: هم يعلمون أن هذه الثورات سوف تكون يوماً ما، وكان كلّ عملهم منصبٌّ على تأخير هذه الثورات طيلة السنين السابقة، لكنّهم عملوا ما بوسعهم، ولن يستطيعوا عمل المزيد فتراهم يتظاهرون بالوقوف إلى جانب الثوار حفظاً لماء الوجه وللحفاظ على مصالحهم في دولنا الغنيّة بالذهب الأسود والأخضر وغيره من ألوان.

قال أبو أحمد متحمّساً: سوف أخرج لكم صندوق العجائب لعلنا نرى خبراً عاجلاً.

فقال الصديقان: عجّلْ عجّلَ اللهُ فرجكَ وفرجَ الأمة.

وكعادة قناة الجزيرة التي يجد فيها العالم العربي وخاصة الفلسطينيون متنفساً لأنها تنقل واقع الحال بمصداقية، فقد استفتحنا بمجازر السّفاح بشّار وشبّيحته، وبدأنا نحوقل وندعو على بشار، وأنْ ينصرَ اللهُ الثوارَ الذين هم عامّة الشعب الذي يطالب بحقوقه والعيش بكرامة كباقي أمم الأرض.

قال سمير: إلى متى سنظل نكتفي بالدعاء؟

أجابه ربيع: وماذا سنفعل ونحن هنا لا نستطيع فعل شيء نحن أسرى، بل حتى تغيير حارسٍ أو ناطورٍ لا نستطيع، فمثلاً على نطاق الأسرة يجد ربّ الأسرة صعوبة في قيادة بيته وأسباب كل هذا عوامل

كثيرة متراكمة نتيجة الغزو الفكري في مختلف مجالات الحياة ناهيك عن الاحتلال.

قال أبو أحمد: لهذا نرقبُ الأحداث بشغفٍ فنحن كالغريق الذي يتعلق بقشّة؛ ولعلّ الله أن يُخففَ عنّا يومَ القيامة بسببِ ما نحن فيه من ضَيْمٍ.

قال سمير: هذه حالُ من لا دولةَ له.

بعد أسبوعٍ اتصل ربيعُ على صديقيه ليسألهم إن كانوا سيحضرون عرس أحد أبناء عائلتهم، فوافقوا بعد أن تأكدوا أن حفلة العرس ليست في قاعة، وتواعدوا بعد انتهاء صلاة الجمعة أن ينطلقوا من المسجد مباشرةً كالعادة إلى مكان ذلك العرس.

لا نعرفُ لمن تُقلّدُ قِلادة العرس.. لحفل العرس حيث العروسان على المنصة.. أم نُقلدها لمن تعب في التحضير لهذه المناسبة... أم للمنشدين وحفلة الحناء والتي غالباً تكون مساء الخميس.

هي بقايا أيام فرح بقيت لنا وإن كانت ممزوجة بغياب الشّمس الصّافية كليّاً عن بلادنا وشبه غائبة عن بلاد عربية وإسلامية أخرى مترامية الأطراف... مترامية الأحزان.

في قريتنا وفي صباح يوم جمعة.. نذهب لبيت قريب لنا يستعدّ لتزويج ابنه، ونبدأ بقطّع الحطب لنوقد النار، ونضع عليها الذبائح في قدور كبيرة

تكون حوالي خمس عشرة ذبيحة من الخراف أو الجديان؛ حيث نكون قد ذبحناها وقطعناها ليلة الجمعة استعداداً لطبخها في الصباح، وحينما ينادي المنادي لصلاة الجمعة يكون الطعام قد نادى بأنه نضج.. فنذهب لصلاة الجمعة، ونعود لاستقبال الضيوف وتناول الطعام.. ويكون هناك أحد الشباب قد جلس على كرسيّ وأمامه طاولة عليها دفتر وقلم ليسجل اسم الذي يريد دفع "النقوط".

وبعد صلاة العصر يذهب أهل العريس بزفة ليعودوا بزفة أكبر، وخاصة إذا كانت العروس من عائلة أخرى حيث يلتقي الجمعان كالجيشين ليعودوا بالعروسين بين راكب وماشٍ بزفة طوال الطريق يكون الرجال في المقدمة والنساء في المؤخرة.. وفي هذه الأثناء نكون قد أعددنا طعام أهل العروس.

بعد إحضار العروس واحتفال النساء بها بأناشيدهنّ الشعبية يبدأ الناس بالانصراف، ويبقى الأقربون لالتقاط الصور وتقديم الهدايا الخاصة للعروسين.. إن حفل العرس حفلٌ مشهودٌ يمرّ بسرعة.. لكنّ ذكرياته لا تنسى.

وأثناء عودة الأصدقاء من تلك الحفلة الشاقة يتأففون، فقال أحدهم: والله يا جماعة حضور جنازة عندي أفضل من حضور عرس.

قال أبو أحمد: خلّ الناس تفرح يا رجل فهذه سُنة الحياة.

قال ربيع: لستُ أعني هذا، بل كثرة المناسبات أرهقتنا يا رجل وتكاد لا ترتاح في بيتك.

قال سمير: معك حق، فبعد هذا العرس تأتي جنازة، ثم فلانٌ مرض ولا بدّ من زيارته للأجر، ففلانٌ نجح وتخرّج من الجامعة، وفلان خطب لابنه أو ابنته، وفلان بنى بيتاً جديداً، وفلان رزق بمولودٍ، وفلان اشترى سيارة، وفلان دخل السجن فتجِبُ المواساة، وفلان خرج من السجن، فتجبُ التهنئة، وفلان تخاصم مع فلانٍ فوجبَ الصّلحُ بينهما، وفلانٌ سيسافر للحجّ فيجبُ التوديع والاستقبال، وفلان سيذهب للعمرة فيجب ما يجب فيها للحجّ، وفلان سافر إلى الأردن لزيارة رحمه فيجب الذهاب لتوديعه وخاصة لإعطائه بعض الأمانات لتوصيلها للأقرباء هناك، وفلان عمِل حادثةً في سيارته، وفلان... فقاطعه أبو أحمد قائلاً: أرجوك.. أرجوك توقف، لا تُكْمِلْ.

قال ربيع: عرّجا عندي لِيكملِ سميرٌ حديثه.

فأجابا: اذهب واسترح، ودعنا نسترح كذلك.

وعادَ كلّ إلى بيته.

حين تهدأ الأمور ويشعر ربيعٌ أن الفُرصة مواتيةٌ للذهاب مع أسرته لاستنشاق الهواء الطلق في بيته القديم المهجور شرقيّ البلدة، فإنه يستغلّ الفرصة تلك، فيأخذون معهم من الطعام والشراب، وينتقل الخبر بين

أطفال الحوش وخاصّةً الصغار فيسارعون إلى حجز مكان لهم في السيارة التي لا تتسع للجميع، فيلحقون بالراكبين مشياً، ويصلون لاهثين متعبين، ولكن مسرورين فرحين، وكانت آخر مرة ذهبوا فيها على هذه الحالة قبل أربعة أشهر، فبقوا حتى بعد العشاء، وعادوا على مرحلتين راكبين، وفي السيارة ضعف الحمولة المسموحة خوفاً على الأطفال من عتمة الليل في الطريق الطويلة.

وبعد طول غياب- أي فترة الشتاء- عن هذا البيت المهجور- والذي يقع على حافة القريةِ الجنوبية المشرفة على بيت لحم جنوباً- وعن شجيراتهِ وبئره، ذهبَ ربيعٌ هذه المرّة خلسة في زيارة المشتاق إلى تلك الأرض التي غابَ عنها طويلاً بسبب سرعة الزمن، وهي تبعد عن بيتهِ الرئيسي ثلاث كيلومترات.. ذهبَ بصحبة صغيرهِ مشياً وقد كان في الطريق- بعدما ابتعدا قليلاً عن ضوضاء الناس- يلاهي ولدهُ بمداعبة كوز من الصّنوبر الناشف بالأقدام ككرة؛ لينسيه تعبَ المشيِ الممتع. وصلا إلى الأرض، وعانقاها، وبدا عليها بعض اللوم ويحقّ لها ذلك.. قصّ الفروع الزائدة من الأشجار، ويُسمّي ذلك (تقنيب الشجر)،وتفقّد البئر، فإذا هي ملآى بفضل الله، فقد كانت الأمطار مباركة هذا العام. ملأ وعاءهُ منها؛ للشُرب، ولعمل الشّاي لأنه يكون من ماء البئر في الصفاء كما السّماء بلا ضباب.

أثناء نكشه على شجيرة لوز صغيرة تحتفل بوريقاتها الخضراء الطرية لفتت انتباهه بقربها نبتة صغيرة ذات ورقة ملساء بشكل القلب، فَنَسَلها من الأرض، وإذا بآخرها جذر مستدير صغير بقطر الخاتم. مسح ربيعٌ عنه التراب بلطف، وقشّر جزءاً منه، فإذا هو ناصع البياض. تذوق منه مدفوعاً بحب الاستطلاع والمعرفة، وما كاد يفعل ذلك حتى شعر بحرقة ووخزٍ كالإبر الناعمة الدّقيقة، فتمضمض بالماء، فزاد الألم.. كان ذلك ظُهْرَ يوم مشْمِسٍ ، وبقي أثر تلك العُشبة أيّاماً.. أجرى ربيعٌ تحرياته عن تلك النبتة بعد أن أخذها معه للبيت، وبحث عنها في كتاب عنده عن الأعشاب، فلم يجد لها صورة أو اسماً حتى سأل بعض الأصدقاء عنها فعرفوها، وقالوا: أن بعض الناس يبحث عنها ويشتريها. تأكد عن النبتة من صديق آخر هو الإنترنت ؛ فإذا هي نبتة: (اللوف) ويكاد فعلها يكون كالكلاشنكوف. بعد هذا الحدث البسيط تأمل، فسبح ربّه متعجباً، ومتأملاً، ومتسائلاً: أوتفعلُ هذه النبتة الصغيرة الناعمة الملساءُ هذا الفعل؟ وهل من الناس من يشبهها؟ هذه النبتة يُعمل منها حساءٌ من ورقها، وليس من جذرها، وذلك بعد غليه وتخليصه من المادّة الحارقة والسامة ثم فرم الورق وعصره، ويضاف على الطماطم أو البيض ولها منافع. اعتبرَ ربيعٌ هذه النبتة صديقته لأنه أحيانا يكون من السّم علاج... لكن طريقة التعرّف عليها كانت شائكة.

بعد أن عاد وتغدّى واستراح وقبيل القيلولة اختار ربيعٌ كتاباً وبدأ يقرأ فلفتت انتباهه مشاجرةٌ أو حالةُ استنفار، فترك كتابه مسرعاً نحو النافذةَ وكاد يتعرقلُ بكرسيٍّ كان أمامه.

لم تكن كالعادة مشاجراتُ صيفٍ بين البشر هذه المرّة إنما صياح صبيانٍ حين رأوا مجموعةً من العصافير تزقزقُ بحدّةٍ وترفرفُ بقوّةٍ، فتبسّم مستمتعاً بالمشهد فلربما رأتِ العصافيرُ في شِقِّ الحائط أفعى فأعلنت النفيرَ العام، وكان ذلك.

سرعان ما حضر أحدُ جيرانه فتحلقَ الصبيانُ حولهُ وتبيّنَ الأمرَ فأحرق خرقةً بعد ربْطها برأس قضيبٍ حديديّ طويلٍ وقرّبها من الشّقّ الذي في حائط البيت القديم، فخرجت منه أفعى كبيرةٌ تترنّح من الدخان فقتلها بالقضيب وشقّ بطنها بقطعة زجاجٍ واخرج من بطنها أربعةُ عصافيرٍ لا يزالُ عليهنّ ريشُهنّ وسْطَ فرحٍ ومرحٍ وخوفِ الأطفال المتحلقين حوله.

حدث ذلك وربيعٌ ما زال ينظر صامتاً من نافذة بيته المطلةِ على الحياة. فلما اطمأنّ على هذه النهاية التي نسي تصويرها ترك النافذة مفتوحةً وعاد ليبحث في كتابه عن الصفحة التي وصلها، فقد أغلقهُ بسرعة دون وضع علامة كالعادة في كتابٍ لا يملّ ُ قراءَ ته. لكنه ما لبث أن أغلق كتابه وعاد لتأملاته وتساؤلاته التي لا تنتهي غير أنّ هذا التساؤل داعب فكرهُ: لماذا

لم تكن نظرتي للحياةِ في سنّ الأربعينات كنظرتي في سنّ العشرينيات؟ وإن كانت كذلك هل يتغيرُ شيءٌ من القدر؟

لكنّه استدرك الإجابة: فتَحْتَ قانون قسمةِ المعيشةِ الربّانيّ العادل لا تعني الإجابة عن هذا التساؤل شيئاً... فما أحسنَ الرّضا.

رنّ الهاتفُ فإذا صديقهُ يذكرُهُ بموعدِ التسوّق من مدينة بيت لحم، فطلب إمهالهُ بضْعَ دقائقَ حتى يستعدّ، وتأففّ بعد إغلاق الهاتف بسبب نكَدِ الطريق وحواجزها العسكرية.

قال لصديقه الذي يقود السيّارة: رحمَ اللهُ أيامَ زمان حيث كنا نذهب مشياً إلى بيت لحم وكنا نصل أسرع من هذه السيّارة. أنحنُ جنينا على أنفسنا أم جنى علينا عرْبنا؟

أجابَ صديقهُ مبتسماً: نحن في زمنٍ لا يعرَفُ فيه من الجاني ومن المجنون ومن العدوّ ومن الصديق! ثمّ سكتا لتستغلّ صمتهما نسائمُ الخريف تداعبهما كالمُواسية لهما من نافذة السيارة كأنها تقول لهما إنّ عجلة الزمان أسرعُ من عجلة سيارتكما وسيطوي الزمانُ مرحلتكما، ولربما تعودان إلى التسوّق من بيت لحم مشياً على الأقدام بعد أن تروْا بدراً من الأيام.

ثم سأل ربيعٌ صديقه وحيداً: ما لي أراك شاحباً؟

فأجاب: ذهبت أمس إلى الطبيب الحكيم فقال لي بعد فحصي: أنت مريض بمرض جنون صمت العرب، وبانفلوانزا الطائرات العربية ذات الأجنحة الجبرانية المتكسّرة...

قلت: وما العلاج؟

قال: ليس لك بد من أكل الصّبر بشوكه.

قلت: وإلى متى؟

قال: بعد تمام انفصال الملح عن الماء، أو فسطاط الإيمان عن النفاق؛ وذلك بنار الغليان للأولى، ونار الفتنة للثانية حتى تتضح الرؤية والتشخيص بعد التمحيص.

قلت: ربما اقترب الشّفاء.

وأثناء عودتي تذكرتُ أن بحيرتنا الميتة لها حالة استثنائية أو علاج آخر. فسأله ربيع: وماذا سيكون حالك إذا رأيت مرضى القلوب أخشى أن يزداد مرضك؟ يا رجل رأيتُ من الناسِ من نحتَ السجادة؛ لسجوده عليها من كثرة العبادة، ووالله ما أحبّ لابن أبيه السعادة وصلاة الفجر في المسجد له عادة.

قال وحيد: فلمَ الحفاوة به من الناس، ولم كلّ هذا الترحاب؟

أجاب ربيع: سبحان من يعلمُ ما في الألباب!

الخبر العاجل

الخبرُ العاجلُ الذي يُنتَظَر كان سَبَبُهُ تحطيمُ القضبان المُتباينةِ التي كانت تسجنُ أبناء هذا الوطن الكبير، والتي صنعتها بعناية قوى الاستعمار على مدى أحقابٍ من السنين.

بينما كان الأصدقاء مجتمعون لحضور مباراة ريال مدريد وبرشلونة في بيت سمير، وكانوا قد اشترطوا ألا يسبّ أحدٌ على أيٍّ من الفريقين والمشجّعين، إذ جاء الصّريخ صائحاً: افتحوا على الجزيرة بسرعة، فلم يكترث أحد، فماذا يمكن أن يكون، واستمروا بمشاهدة المباراة.

فخطف الصريخُ منهم جهاز التحكم عن بعد وفتح على الجزيرة ففتح الجميع أفواههم مدهشين، فالزحف العربي والإسلامي يحيط بفلسطين من كلّ جوانبها وهم بالملايين جاؤوا لتخليصنا، وقد بدا التلفاز مقسّماً إلى أربع شاشات إحداها تُظهر أشباحاً يلبسون السّواد وقد سدّوا شاطئ البحر من كثرتهم متجهين إلى السّفن هاربين وآخرين بنفس اللون قد غطوا المطارات لنفس السبب بالسفن وآخرين بالطائرات.فكاد يُغشى على البعض من هذا المشهد وكبر آخرون وبكى آخرون وتعانق الجميع لهذا الخبر المتأخر والعاجل.

ثم قال سمير فرَحاً ودهشةً ومزحاً: هل تظنهم شيعة؟

أجاب ربيع: إنهم كالعباسيين لباساً وكسحابة الرشيد موئلاً.

بقوا حتى الصباح بلا طعام ولا شراب، وهل في الدنيا أفضل من هذا الطعام والشراب، فقد أكلوا هذا الخبر وشربوه حتى كاد يأكلهم من الفرحة ويشربهم، والاتصالات الهاتفية تتوالى في كل أنحاء العالم وليس في فلسطين وحدها بل ما بين البحر والمحيط يُهنّئُ الناسُ بعضهم.

قال ربيع لسمير وأبي أحمد: ماذا سنفعل بأتباعِ الأصابع الخفية ومن وراءهم؟

قال أبناءُ الشعبِ الطيّب: (وأن تعفوا أقربُ للتقوى)... سَنُسامِحْ. فتدخّل أحد الحاضرين قائلاً: سيكون ما تقولون لكن بعد الشورى إن شاء الله، ثم تذكر ربيع قصة الغولة التي حكتها جدته له ولأخوته وهم صغار ورأوا نهايتها بعد اليقظة وبعد سُبات طال أمده.

الخاتمة

قال سقراط: لا يوجد حرية مطلقة إلا في أذهاننا. تلك الحرية المطلقة التي يعنيها سقراط موجودٌ أفضل منها في عالم الآخرة، ولا يعني هذا ألا نبحث عن حريتنا اللامُطلقةِ في أرضنا من أجل أن نكونَ أو ألا نكونَ.